

(ويجعلكم خلفاء الأرض) وقوله (إني جاعل في الأرض خليفة) وقوله (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وقوله (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أى فآوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحسن والمساوى والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) وقوله (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وقوله تعالى (ليلوكم فيما آتاكم) أى ليختبركم في الذى أنعم به عليكم وامتنحكم به ليختبر الغنى في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حاوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فانظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء » وقوله تعالى (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله (وإنه لغفور رحيم) لمن والاه واتبع رسله فبما جاءوا به من خبر وطلب . وقال محمد بن إسحق ليرحم العباد على ما فهم رواه ابن أبي حاتم وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله (وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم * وإن ربك لشديد العقاب) وقوله (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكأها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع في كل بحسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب جميع الدعاء جواد كريم وهاب . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنطأ أحد من الجنة خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون » ورواه النزمى عن قتبية عن عبد العزيز الدراوردى عن العلاء به وقال حسن ورواه مسلم عن يحيى ابن يحيى وقتبية وعلى بن حجر ثلاثهم عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء وعنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضى » وعنه أيضا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » رواه مسلم - آخر تفسير سورة الأنعام والله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة الاعراف وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ المص * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ ذِي كُرَى الْمُؤْمِنِينَ * أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه ، قال ابن جرير حدثنا سفيان ابن وكيع حدثنا أبي عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس (المص) أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جبير (كتاب أنزل إليك) أى هذا كتاب أنزل إليك أى من ربك (فلا يكن في صدرك حرج منه) قال مجاهد وقتادة والسدى شك منه وقيل لا تتحرج به في إبلاغه والانداز به (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ولهذا قال (لتندبر به) أى أنزلناه إليك لتندبر به الكافرين (وذكري للمؤمنين) ثم قال تعالى مخاطبا للعالم (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى اقتفوا آثار النبي الأسمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه (ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره (قليلا ما تذكرون)

كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية وقوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ عِلْمَهُمْ وَعَلَّمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾

يقول الله تعالى (وكم من قرية أهلكتناها) أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذلك الآخرة كما قال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) وكقوله (فكأن من قرية أهلكتناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) وقال تعالى (وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين) وقوله (فجاءها بأسنا بيانا أو هم قائلون) أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه وتقمته بيانا أي ليلا أو هم قائلون من القبولة وهي الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة وهو كما قال (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيانا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبعون) وقال (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فهم لم يعمدون * أو يأخذهم على تخوف فإن ربك لرؤوف رحيم) وقوله (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا كقوله تعالى (وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين) قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم» حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال: قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم» قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذلك قال فقرأ هذه الآية (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) ، وقوله (فلنساءل الذين أرسل إليهم) الآية كقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجاوبوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية (فلنساءل الذين أرسل إليهم ولنساءل المرسلين) قال عما بلغوا ، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبو سعيد الكندي حدثنا الحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده» قال الليث وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ (فلنساءل الذين أرسل إليهم ولنساءل المرسلين) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة وقال ابن عباس في قوله (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكمم بما كانوا يعملون (وما كنا غائبين) يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يفتل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)

﴿وَأَلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْمُونَ﴾

يقوله تعالى (والوزن) أى للأعمال يوم القيامة (الحق) أى لا يظلم تعالى أحدا كقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمههاوية * وما أدراك ما هي * نار حامية) وقال تعالى (فإذا نضج فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

﴿فصل﴾ والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساما قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء فى الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف . ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظلمات نهارك . وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر « فأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عمالك الصالح » وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لإله إلا الله يقول يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ (فلانقيم لهم يوم القيامة وزنا) وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال « أتعجبون من دفن ساقيه والذى نفسى بيده لها فى الميزان أثقل من أحد » وقديمك الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

يقول تعالى ممتنا على عبده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارا وجعل فيها رواسى وأنهارا وجعل لهم فيها منازل وبيوتا وأبواب لهم منافعها وسخر لهم السحاب لآخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معاش أى مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم كفار) وقد قرأ الجميع معاش بلا همز لإعبد الرحمن بن هرمرز الأعرج فإنه همزها والصواب الذى عليه الأكترون بلا همز لأن معاش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستئصال فقل معاش ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية فى الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر فان الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل ونهزم لذلك والله أعلم

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾

ينبه تعالى فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم وبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطوع عليه من الجسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وهذا كقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا سويا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير سورة البقرة وهذا الذى قرره هو اختيار ابن جرير أن المراد

بذلك كله آدم عليه السلام وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن منهل بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) قال خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم اللدنية وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أي خلقنا آدم ثم صورنا اللدنية وهذا فيه نظر لأنه قال بعده (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر كما يقول الله تعالى لبي إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ (وظللنا عليكم الغمام وأنزلناه عليكم المن والسلوى) والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية فان المراد منه آدم الخلق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا مبعثا والله أعلم

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى (ما منعتك أن لا تسجد إذ أمرتك) لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشاعر * ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * فأدخل « إن » وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي قالوا وكذا هنا (ما منعتك أن لا تسجد) مع تقدم قوله (لم يكن من الساجدين) حكاهما ابن جرير وردها واختار أن منعتك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أخرجك وأزمتك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا . وهذا القول قوى حسن والله أعلم ، وقول إبليس لعنه الله (أنا خير منه) من العذر الذي هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول يعني لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر العين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى (فقعوا له ساجدين) فشد من بين الملائكة لتترك السجود فلهذا ألبس من الرحمة أي أوبس من الرحمة فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا فان الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والاصلاح والنار من شأنها الاحراق والطيش والسرعة ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والاناة والاستكانة والانتقاد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » هكذا رواه مسلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجن من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » قلت لنعيم بن حماد أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال باليمن وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح « وخلق الحور العين من الزعفران » وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن الحسن في قوله (خلقتني من نار وخلقته من طين) قال قاس إبليس وهو أول من قاس إسناده صحيح وقال حدثني عمر بن مالك حدثني يحيى بن سليم الطائفي عن هشام عن ابن سيرين قال أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضا

﴿ قَالَ فَأَهْبَطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ

يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿

يقول تعالى مخاطبا لإبليس بأمر قدرى كوني (فاهبط منها) أي بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتي

فما يكون لك أن تتكبر فيها قال كثير من المفسرين الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى (فآخرج إنك من الصاغرين) أى الدليلين الحقيرين معاملته له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده فعند ذلك استدرك العين وسأل النظرة إلى يوم الدين قال (أنظرفى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين) أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشية التي لا تخالف ولا تمنع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس (إلى يوم يبعثون) واستوثق إبليس بذلك أخذ في العائدة والتمرد فقال (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى كما أغويتني قال ابن عباس كما أضللتني وقال غيره كما أهلكني لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا الذى أبعدتني بسببه على (صراطك المستقيم) أى طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى وقال بعض النحاة الباء هنا قسمية كأنه يقول فباغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال مجاهد : صراطك المستقيم يعنى الحق وقال محمد بن سوفة عن عون بن عبد الله يعنى طريق مكة ، قال ابن جرير الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك (قلت) لما روى الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل حدثنا موسى بن المسيب أخبرنى سالم بن أبى الجعد عن سيرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آباءك قال فعصاه وأسلم » قال « وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتدع أرضك وسماؤك وإعما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال تقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » وقوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ثم لآتينهم من بين أيديهم) أشككهم فى آخرتهم (ومن خلفهم) أرغبهم فى دنياهم (وعن أيمانهم) أشبه عليهم أمر دينهم (وعن شمائلهم) أشهى لهم المعاصى وقال ابن أبى طلحة فى رواية العوفى كلاهما عن ابن عباس أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها أتاك با ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . وكذا روى عن إبراهيم النخعى والحكم بن عيينة والسدى وابن جريج إلا أنهم قالوا من بين أيديهم الدنيا ومن خلفهم الآخرة وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر فالخير يصددهم عنه والشر يحسنه لهم وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال موحدىن وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم وقد وافق فى هذا الواقع كما قال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ) ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما قال

الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا نصر بن علي حدثنا عمرو بن مجمع عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعني نافع بن جبير عن ابن عباس وحدثنا عمر بن الخطاب يعني السجستاني حدثنا عبيد الله بن جعفر حدثنا عبد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي » تفرد به البزار وحسنه وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري حدثني جرير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » قال وكيع من تحتي يعني الحسف . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به وقال الحاكم صحيح الإسناد

﴿ قَالَ أخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرده والإبعاد والنفي عن محل الملا الأملأ بقوله (أخرج منها مذءوماً مدحوراً) قال ابن جرير أما اللذءوم فهو العيب والذام غير مشدد العيب يقال ذامه يذامه ذاماً فهو مذءوم ويتركون الحمز فيقول ذمته أذيمه ذيماً وذاماً ، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم قال والمدحور المقصى وهو المبعد المطرود وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم مانع من اللذءوم والمذموم إلا واحداً وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن التميمي عن ابن عباس أخرج منها مذءوماً مدحوراً قال مقيتا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس صغبراً مقيتا وقال السدي مقيتا مطروداً وقال قتادة لعينا مقيتا وقال مجاهد منقياً مطروداً وقال الربيع بن أنس مذءوماً منقياً والمدحور المضر . وقوله تعالى (لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) كقوله (فالأذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاءكم موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً)

﴿ وَيَأْتِيهِمْ آسَافُ مِنْ فَسْفُوسٍ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة فعد ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبيهما ماها فيه من النعمة واللباس الحسن (وقال) كذبا وافتراء (مانها كما ربحك عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) أي لكلا تكونا ملكين أو خالدين هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكلا ذلك كما كقوله (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) أي لكلا تكونا ملكين كقوله (بين الله لكم أن تضلوا) أي لكلا تضلوا (وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم) أي لكلا تمتد بهم وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن (إلا أن تكونا ملكين) بكسر اللام وقرأه الجمهور بفتحها (وقاسمهما) أي حلف لهما بالله (إني لكما لمن الناصحين) فإني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين كما قال خالد بن زهير ابن عم أبي ذؤيب .

وقاسمهم بالله جهداً لأنتم * أله من السلوى إذ ما نشورها

أى حلف لها بالله على ذلك حتى خدعها وقد يندع المؤمن بالله ، وقال قتادة في الآية حلف بالله إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعان أرشدكما وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له

﴿ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها فانطلق هاربا في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها أرسلىنى فقالت إنى غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمتى نفر؟ قال يارب إنى استحييتك وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ مرفوعا والموقوف أصح إسنادا وقال عبدالرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك أنبأنا الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكل منها بدت لهما سواتهما وكان النوى وارى عنهما من سواتهما أظفارها وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض فانطلق آدم عليه السلام موليا في الجنة فعلق برأسه شجرة من الجنة فناداه الله يا آدم أمتى نفر؟ قال لا ولكنى استحييتك يارب قال أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبجنتك منها مندوحة عما حرمت عليك قال بلى يارب ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال وهو قول الله عز وجل (وقاسمهما إني لكأ لمن الناصحين) قال فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لاتنال العيش إلا كددا قال فأهبط من الجنة وكانا يا كلان منها رغدا فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب فعمل صنعة الحديد وأمر بالحرق فحرق وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصده داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزته ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ماشاء الله أن يبلغ وقال الثورى عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة) قال ورق التين صحيح إليه وقال مجاهد جملا يخضفان عليهما من ورق الجنة قال كهيفة الثوب وقال وهب بن منبه فى قوله ينزع عنهما لباسهما قال كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أكل من الشجرة بدت لهما سواتهما رواه ابن جرير بسند صحيح إليه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال : قال آدم أى رب رأيت إن تبت واستغفرت قال إذا أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطى كل واحد منهما الذى سأله وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبيرة عن ابن عباس قال لما أكل آدم من الشجرة قيل له لمأكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى قال فى أى قد أعقبتها أن لاتحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها قال فرنت عند ذلك حواء فقيل لها الرنة عليك وعلى ولدك وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه

﴿ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

قيل المراد بالخطاب فى (اهبطوا) آدم وحواء وإبليس والحية ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ولهذا قال تعالى فى سورة طه قال (اهبطا منها جميعا) الآية وحواء تبع لآدم والحية إن كان ذكرها صحيحا فهى تبع لإبليس وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات

والله أعلم بصحتها ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المسكفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ وقوله (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أى قرار وأعمار مضمرة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول وقال ابن عباس (مستقر) القبور وعنه قال (مستقر) فوق الأرض وتحتها رواها ابن أبي حاتم وقوله (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) كقوله تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازى كلا بعمله

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكْمٍ وَرِيشًا وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يتمن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس ستر العورات وهى السوات والريش والرياش والرياش حمل به ظاهراً فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات قال ابن جرير : الرياش فى كلام العرب الأبات وما ظهر من الثياب وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وحكاة البخارى عنه الرياش : المال ، وهكذا قال مجاهد وعروة ابن الزبير والسدى والضحاك وغير واحد وقال العوفى عن ابن عباس : الريش اللباس والعيش والنعم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم الرياش الجمال وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ عن أبى العلاء الشامى قال لسأبو أمانة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ « من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله فى جوار الله وفى كنفه الله هيا وهى به ورواه الترمذى وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهنى وفد وثمه يحيى بن معين وغيره وشيخه أبو العلاء الشامى لا يعرف إلا بهذا الحديث ولكن لم يخرج له أحد والله أعلم وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبى مطر أنه رأى علياً رضى الله عنه أتى غلاماً حدثاً فاشتري منه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى فقال ، هذا شئ ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ قال هذا شئ سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى » رواه الإمام أحمد وقوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير) قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع علم الابتداء وذلك خير غيره واختلف المسرون فى معناه فقال عكرمة يقال هو ما يلبسه الموقون يوم القيامة رواه ابن أبي حاتم وقال زيد بن على والسدى وقتادة وابن جرير ولباس التقوى الإيمان وقال العوفى عن ابن عباس العمل الصالح قال الديال بن عمرو عن ابن عباس هو السمى الحسن فى الوجه وعن عروة بن الزبير لباس التقوى خشية الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ولباس التقوى يتقى الله فيوارى عورته فذلك لباس التقوى وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذى رواه ابن جرير حيث قال حدثنى الثنى حدثنا إسحق بن الحجاج حدثنى إسحق بن إسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قيص فوهى محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ثم قال يا أيها الناس اتقوا الله فى هذه السرائر فأتى سمعت رسول الله ﷺ يقول « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداها علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر » ثم قرأ هذه الآية (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله) قال السمى الحسن هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف وقد روى الأئمة الشافعى وأحمد والبخارى فى كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصرى أنه سمع أمير المؤمنين عثمان ابن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر وأما الرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى

في معجبه الكبير له شاهدا من وجه آخر حيث قال حدثنا (١)

﴿ يَدْبِيْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه وما هذا إلا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى (أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

قال مجاهد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتنضع المرأة على قلبها النسعة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية قلت كانت العرب ماعدا قريشا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحسنى ثوبا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ومن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحسنى ثوبا طاف عريانا وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر فتقول .

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل وكان هذا شيئا قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آباءهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله تعالى عليهم (قل) أي يا محمد لمن ادعى ذلك (إن الله لا يأمر بالفحشاء) أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك (أتقولون على الله ما لا تعلمون) أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته وقوله تعالى (قل أمر ربي بالقسط) أي بالعدل والاستقامة (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته فانه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابا موافقا للشريعة وأن يكون خالصا من الشرك وقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) إلى قوله (الضلالة) اختلف في معنى قوله (كما بدأكم تعودون) فقال ابن أبي نجیح عن مجاهد (كما بدأكم تعودون) يحییكم بعد موتكم وقال الحسن البصری كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء وقال قتادة (كما بدأكم تعودون) قال بدأ خلقهم ولم يكونوا شيئا ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخرا واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير وأيده بما رواه من حديث سفیان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة ابن النعمان عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال « يا أيها الناس إنكم

(١) كذا بهامش النسخة الأميرية : هنا بياض في الأصل بمقدار نصف صحيفة وانظر النسخ الصحيحة التامة .

تحمسون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث شعبة وفي حديث البخاري أيضا من حديث الثوري به وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد عن مجاهد (كما بدأكم تهودون) قال يبعث المسلم مسلما والكافر كافرا وقال أبو العالية (كما بدأكم تهودون) ردوا إلى علمه فيهم وقال سعيد بن جبير (كما بدأكم تهودون) كما كتب عليكم تكونون وفي رواية كما كنتم عليه تكونون وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى (كما بدأكم تهودون) من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة ومن ابتداء خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه وقال السدي (كما بدأكم تهودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) يقول (كما بدأكم تهودون) كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تهودون وتخرجون من بطون أمهاتكم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (كما بدأكم تهودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) قال إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا كما قال (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا قلت ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري « فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » . وقال أبو القاسم البغوي حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو غسان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل الجنة وإنه من أهل الجنة وإنه من أهل الجنة » هذا قطعة من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني في قصة قزمان يوم أحد وقال ابن جرير حدثني ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال « تبعث كل نفس على ما كانت عليه » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به ولفظه « يبعث كل عبد على ما مات عليه » وعن ابن عباس مثله قلت ويتأيد بحديث ابن مسعود قلت ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى (فأفهم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها) وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم » الحديث ، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثانی الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقيا ومنهم سعيدا (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وفي الحديث « كل الناس يفتدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وقدر الله نافذ في بريته فانه هو (الذي قدر فهدى) و (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وفي الصحيحين « فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ولهذا قال تعالى (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ثم علل ذلك فقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) الآية قال ابن جرير وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق وقد فرق الله تعالى بين أسألهما وأحكامهما في هذه الآية .

﴿ يَدْبِنِي ۖ ءَادَمَ خَذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه الآية السكرية رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له من حديث شعبة عن سامة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (خذوا زينتكم عند كل مسجد) الآية قال كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس وهو ما يوارى السوءة وما سوى ذلك من جيد البرز والتعاضد فأمرهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقاتادة والسدي الضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتادة عن أنس مرفوعا أنها نزلت في الصلاة في النعال ولسكن في صحته نظر والله أعلم ، ولهذا الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجميل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ومن أفضل اللباس البياض كما قال الإمام أحمد حدثنا علي بن هاشم حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير وصححه عن ابن عباس مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكلكم الأمد فانه يجلو البصر وينبت الشعر » هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن عثمان بن خيثم به وقال الترمذي حسن صحيح ، وللإمام أحمد أيضا وأهل السنن بإسناد جيد عن ممرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أنه تبا الدار ي اشتري رداء بألف وكان يصلى فيه ، وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) الآية قال بعض السلف جمع الله الطيب كله في نصف آية (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) وقال البخاري قال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأطل حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة ، إسناده صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده » ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو الغيرة حدثنا سليمان بن سليم الكلابي حدثنا يحيى بن جابر الطائي سمعت القسدام بن معد يكرب الكندي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فان كان فاعلا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ورواه النسائي والترمذي من طرق عن يحيى بن جابر به وقال الترمذي حسن وفي نسخة حسن صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا بقة عن يوسف بن أبي كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن بن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن من السرف أن تأكل كل ما شئت » ورواه الدارقطني في الافراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقة ، وقال السدي كان الذين يطوفون بالبيت عراة محرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم (كلوا واشربوا) الآية يقول لا تسرفوا في التحريم وقال مجاهد أمرهم أن يأكلوا ويشربوا بما رزقهم الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ولا تسرفوا) يقول ولا تأكلوا حراما ذلك الاسراف ، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) يقول لا تسرفوا في الطعام والشراب ، وقال ابن جرير وقوله (إنه لا يحب المسرفين) يقول الله تعالى (إن الله لا يحب المعتدين) حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل باحلال الحرام

أو بحريم الحلال ولكنه يجب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ردا على من حرم شيئا من المأكول أو المشرب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله (قل) يا محمد
لهؤلاء المشركين الذين يعرّمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم (من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) الآية
أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا وإن شركهم فيها الكفار حسا في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة لا
يشركهم فيها أحد من الكفار فإن الجنة محرمة على الكافرين قال أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين
القاضي حدثنا يحيى الحماني حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت
قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) فأمر بالثياب
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ أَلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبيد الله قال : قال رسول الله ﷺ
« لا أحد أغبر من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه اللدح من الله » أخرجه في
الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن شقيق أبي وائل عن عبيد الله بن مسعود وتقدم الكلام على
ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام وقوله (والإثم والبغي بغير الحق) قال السدي أما الإثم
فالمعصية والبغي أن تبغى على الناس بغير الحق وقال مجاهد الإثم المعاصي كلها وأخبر أن الباغى بغيه على نفسه وحاصل
ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغي هو التمدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا وقوله تعالى (وأن تشركوا
بالله ما لم ينزل به سلطانا) أي تجعلوا له شركاء في عبادته (وأن تقولوا على الله ما تعلمون) من الافتراء والكذب من
دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الآية

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يَبْدِيءُ آدَمَ إِمَامًا يَا تَيْبَتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

يقول تعالى (ولكل أمة) أي قرن وجيل (أجل فإذا جاء أجلهم) أي ميقاتهم المقدر لهم (لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون) ثم أندر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال (فمن اتقى واصلح)
أي ترك المحرمات وفعل الطاعات (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها (أي كذبت
بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها) أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (أي ما كثون فيها مكثا مخلصا

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يقول (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) اختلف المفسرون في معناه فقال العوفي عن ابن عباس ينالهم ما كتب عليهم وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود وقال علي بن أبي طاحه عن ابن عباس يقول نصيبهم من الأعمال من عمل خيرا جزى به ومن عمل شرا جزى به وقال مجاهد ما وعدوا به من خير وشر وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد واختاره ابن جرير وقال محمد بن كعب القرظي (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) قال عمله ورزقه وعمره وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول قوى في المعنى والسباق يدل عليه وهو قوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) ونظير المعنى في هذه الآية كقوله (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقوله (ومن كفر فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فنذيقهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتهم قليلا) الآية وقوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الآية يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرغهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعواهم يخلصوكم بما أنتم فيه قالوا (ضلوا عنا) أى ذهبوا عنا فلا نرجو نعمهم ولا خيرهم (وشهدوا على أنفسهم) أى أقروا واعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا كافرين)

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَ كُورُهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِضْنَاهُمْ لِرَبِّنَا هُوَ لَوْلَا أَضَلُّونَا فَتَاتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المقتربين عليه المكذبين بآياته (ادخلوا في أمم) أى من أمثالكم وعلى صفاتكم (قد خلت من قبلكم) أى من الأمم السالفة الكافرة (من الجن والإنس في النار) محتمل أن يكون بدلا من قوله في أمم ويحتمل أن يكون في أمم أى مع أمم وقوله (كلما دخلت أمة لعنت أختها) كما قال الخليل عليه السلام (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) الآية ، وقوله تعالى (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤنا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) وقوله (حتى إذا دار كورها جميعا) أى اجتمعوا فيها كلهم (قالت أخراهم لأولاهم) أى أخراهم دخولا وهم الإتياع لأولاهم وهم المتبعون لأنهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيسكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) أى أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل * ربنا آتهم ضعفين من العذاب) الآية وقوله (فال لكل ضعف) أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلابحسبه كقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا) الآية وقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقوله (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية (وقالت أولاهم لأخراهم) أى قال المتبعون للإتباع (فما كان لكم علينا من فضل) قال السدي فقد ضللتكم كما ضللتنا (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى (ولو رى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أن نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم محرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار

إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأُفَتِّحَنَّ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظُوا فِي سَمِّ الْخِلْيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

قوله (لا تفتح لهم أبواب السماء) قيل المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس وكذا رواه الثوري عن ليث عن عطاء عن ابن عباس ، وقيل المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله السدي وغير واحد ويؤيده ما قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن المنهال هو ابن عمرو عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها فلا تمر على ملائكة من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الحبيثة ؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء) الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن المنهال بن عمرو به وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فاتيننا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وحلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال « استعينوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثة ثم قال - إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفعه مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمر بها على ملائكة من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقولان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له وما عمالك فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأقرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر - قال - ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أ بشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوحة يجىء بالخبر فيقول أنا عمالك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال - وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ويجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الحبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف البلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأتين ربح جيفة ومحدث على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمر بها على ملائكة

اللائكة إلا قالوا ماهذه الروح الحبيثة فيقولون فلان بن فلان بأصبح أسائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا - ثم قرأ - (ومن يشرك بالله فكأما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لأدرى فيقولان مادينك فيقول هاه هاه لأدرى فيقولان ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لأدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها ومومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتان الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول من أنت فوجهك الوجه يحمى بالبشر فيقول أنا عمالك الحبيث فيقول رب لا تقم الساعة » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر بن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم وفي آخره ثم يقبض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فرش من النار وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجي أيتها النفس الحبيثة كانت في الجسد الحبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقولون لا مرحبا بالنفس الحبيثة التي كانت في الجسد الحبيث ارجعي ذميمة فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصعد إلى القبر » وقد قال ابن جرير في قوله (لا تفتح له أبواب السماء) لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود هو الجمل ابن الناقة وفي رواية زوج الناقة وقال الحسن البصري حتى يدخل البعير في خرق الابرة وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روى علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس انه كان يقرؤها يلج الجمل في سم الخياط بضم الجيم وتشديد الميم يعنى الجمل الغليظ في خرق الابرة وهذا اختيار سعيد بن جبير وفي رواية أنه قرأ حتى يلج الجمل يعنى قلوب السفن وهي الحبال الغلاظ ، وقوله (لهم من جهنم مهاد) قال محمد بن كعب القرظي (لهم من جهنم مهاد) قال الفرش (ومن فوقهم غواش) قال اللخف وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي (وكذلك تجزي الظالمين)

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَكْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد (أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها) نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال (لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى من حسد وبنفس كما جاء فى صحيح البخارى من حديث قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا خلع المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا وتقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزلة فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا » وقال السدى فى قوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار) الآية إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشريوا من إحداها فينزح ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً ، وقد روى أبو إسحق عن عاصم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحو ما من هذا كما سيأتى فى قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقال قتادة : قال على رضى الله عنه إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطليحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) رواه ابن جرير وقال عبدالرزاق أخبرنا ابن عبيدة عن إسرائيل قال سمعت الحسن يقول قال على : فينا والله أهل بدر نزلت (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) وروى النسائى وابن مردويه واللفظه من حديث أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هدانى فىكون له شكرا وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هدانى فىكون له حسرة » ولهذا لما أورتوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم أورتتموها بما كنتم تعملون ، أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل »

﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقرير والنويخ إذا استقروا فى منازلهم (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) أى ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أى قالوا لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تقررهم الملائكة يقولون لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا نصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى « يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رءوسهم ههنا وجدتم ما وعد ربكم حقاً فانى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » وقال عمر يا رسول الله تخاطب قوما قد جيفوا فقال « والذى نفسى بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »

وقوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم) أى أعلم معلم ونادى مناد (أن لعنة الله على الظالمين) أى مستقرة عليهم ثم وصفهم

بقوله (الذين يصدون عن سبيل ويبنونها عوجا) أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويبنون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد (وهم بالآخرة كافرون) أى وهم ببقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهمذا لا يبألون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا فهم شر الناس أقوالا وأعمالا

﴿ وَيَبْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير وهو السور الذى قال الله تعالى فيه (فصر ب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) وهو الأعراف الذى قال الله تعالى فيه (وطى الأعراف رجال) ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى (وبينهما حجاب) هو السور وهو الأعراف وقال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب ، قال ابن جرير والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفا لارتفاعه . حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول الأعراف هو الشيء المشرف وقال الثورى عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال الأعراف سور كعرف الديك ، وفى روايه عن ابن عباس الأعراف جمع : تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، وفى رواية عنه هو سور بين الجنة والنار ، وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير ، وقال السدى إنما سمي الأعراف أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس ، واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن إسماعيل حدثنا عبيد بن الحسن حدثنا سليمان بن داود حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخنا لما يقال له أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته فقال « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سالم عن أبى الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال « إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم قتلوا فى سبيل الله » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل عن يحيى بن عبد الرحمن المرزى عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة بمعصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله » ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن أبى معشر به ، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعا من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصارها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر . وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم ، وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبى إسحق قال : قال الشعبي أرسل إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قرش فإدا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكر آ ليس كما ذكرنا فقلت لهما إن شئنا أنبأكم بما ذكر حذيفة فقالا هات فقلت إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة (فإذا صرفت

أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) فيبينهم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإنني قد غفرت لكم . وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال : قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسنة أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسنة بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله (فمن ثقلت موازينه) الآيتين ثم قال الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح قال ومن استوت حسنة وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من منازلهم قال فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيامهم ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومناققة فلما رأى أهل الجنة مالتى المنافقون قالوا (ربنا آثم لنا نورنا) وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهناك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول هلك من غلبت آحاده عشراته رواه ابن جرير وقال أيضا حدثني ابن وكيع حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبي ثابت عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال الأعراف: السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المسكان حتى إذا بدا الله أن يعافهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافته قصب الذهب مكلل بالؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في محورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال : آمنوا ما شئتم ، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم : لكم الذي تمنيت ومثله سبعون ضعفاً ، فيدخلون الجنة وفي محورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن جرير به وقد رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد وعن عبد الله بن الحارث من قوله وهذا أصح والله أعلم وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد وقال سعيد بن داود حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي ررعة عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم » وهذا مرسل حسن ، وقيل هم أولاد الزنا حكاه القرطبي وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى عن شيبه ابن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن بن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن مؤمناً من الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ فسألناه وما الأعراف فقال حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار رواه البيهقي عن ابن بشران عن علي بن محمد المصري عن يوسف ابن يزيد عن الوليد بن موسى به ، وقال سفيان الثوري عن خفيف عن مجاهد قال أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجاز في قوله تعالى (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمة) قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أتم تحزنون) وهذا صحيح إلى أبي مجاز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضا والله أعلم ، وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً منها أنهم شهدوا أنهم صلحاء تهرعوا من فزع الآخرة وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل هم أنبياء وقيل هم ملائكة وقوله تعالى (يعرفون كلا بسيماهم) قال

على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه وكذا روى الضحاك عنه ، وقال العوفي عن ابن عباس أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوزوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يحبون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطعمون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، وقال معمر عن الحسن إنه تلا هذه الآية (لم يدخلوها وهم يطعمون) قال والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا للكرامة يريدونها وهم وقال قتادة قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع وقوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) قال الضحاك عن ابن عباس إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدي وإذا مروا بهم يعني بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١﴾ أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عن تفرع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم (ما أغنى عنكم جمعكم) أى كثرتكم (وما كنتم تستكبرون) أى لا يشفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) وقال ابن جرير حدثني محمد بن سعد حدثني أى حدثني عمى حدثني أى عن أبيه عن ابن عباس (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) الآية قال فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقال حذيفة إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك فقال هل تعلمون أن أحدا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته اليه غضبه وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا ابني إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول تعلمون من أحد آخذ الله خليلا هل تعلمون أن أحدا أحرقة قومه بالنار فى الله غيرى ؟ فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا ابني موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول هل تعلمون من أحد كلمه الله تسكيا وقربه نجيا غيرى فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له اشفع لنا عند ربك فيقول هل تعلمون أحدا خلفه الله من غير أب (١) فيقولون لا فيقول هل تعلمون من أحد كان يرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال فيقولون لا فيقول أنا حجيج نفسى ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيأتونى فأصرب يدي على صدرى ثم أقول أنا لها ثم أمشى حتى أفى بين يدي العرش فأتى ربي عز وجل فيفتح لى من شاء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد فيقال لى يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى ثم أتى على ربي عز وجل ثم أخرج ساجدا فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول ربي أمق فيقول هم لك فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطنى بذلك المقام وهو المقام المحمود فأتى بهم الجنة فأستفتح فيفتح لى ولهم

(١) لم يرد فى النسخ هنا كلمة غيرى .

فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافناه قصب مكدل بالؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى في صدورهم شمامت بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَسَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِثَائِلِينَ * يَجْحَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدي (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) يعني الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم ، وقال الثوري عن عثمان التقي عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفرض علي من الماء فيقال لهم أجيئهم فيقولون (إن الله حرمها على الكافرين) وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (إن الله حرمها على الكافرين) يعني طعام الجنة وشرابها ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نصر بن علي أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال سألت ابن عباس أو سئل أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » وقال أيضاً حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بتعود من الجنة لعله أن يشفيك به فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ﷺ فقال أبو بكر إن الله حرمها على الكافرين ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا بأنحازهم الدين لهوا ولعبا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للأخرة ، وقوله (فاليوم ننسهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) أي بما لهم معاملة من نسيم لأنه تعالى لا يشف عن علمه شيء ولا ينسأ كما قال تعالى (في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) وإنما قال تعالى هذا من باب القابلة كقوله (نسوا الله فنسيهم) وقال (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (وقيل اليوم ننساكم كما نسيت لقاء يومكم هذا) وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (فاليوم ننسهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) قال نسيم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال تركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد تركهم في النار ، وقال السدي تركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك رأساً وتربع ؟ فيقول بلى فيقول أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول لا فيقول الله تعالى فاليوم أنسأك كما نسيتي

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَهُمْ لَا يُفْقَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اعتذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كقوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) الآية ، وقوله (فصلناه على علم) للعالمين أي على علم منا بما فصلناه

به كقوله (أنزله بعلمه) قال ابن جرير - وهذه الآية مردودة على قوله (ككتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) الآية (ولقد جئناهم بكتاب) الآية وهذا الذي قاله فيهِ نظر فانه قد طال الفصل ولا دليل عليه وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الحسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عنهم في الدنيا برسالة الرسل وإنزال الكتب كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولهذا قال (هل ينظرون إلا تأويله) أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع لا يزال يحىء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ قوله (يوم يأتي تأويله) أي يوم القيامة قاله ابن عباس (يقول الذين نسوه من قبل) أي تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا (قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه (أو نرد) إلى الدار الدنيا (ففعل غير الذي كنا نعمل) كقوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون المؤمنين * بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) كما قال ههنا (قد خسروا أنفسهم وفضل عنهم ما كانوا يفترون) أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها (وفضل عنهم ما كانوا يفترون) أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا يتقدونهم مما هم فيه

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام واختلعا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا حجاج حدثنا ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جريج به وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال في ستة أيام ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحمري ليس مرفوعا والله أعلم

وأما قوله تعالى (ثم استوى على العرش) فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فان الله لا يشبهه شيء من خلقه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقص فقد سلك سبيل الهدى ، وقوله تعالى (يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا) أي يذهب ظلام هذا بضيء هذا وضيء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا أي سريرا

لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظالمون * والشمس تجري
لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ولا الليل يباق النهار وكل في فلك يسبحون) فقوله (ولا الليل سابق النهار) أى لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل
هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال (يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) منهم من نصب ومنهم
من رفع وكلاهما قريب المعنى أى الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيشته ولهذا قال منها (ألا له الخلق والأمر) أى له الملك
والنصرف (تبارك الله رب العالمين) كقوله (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) الآية قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا
إسحق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن حدثنا بقة بن الوليد حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى عن عبد العزيز
الشامى عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحسد
نفسه فقد كفر وحبط عمله ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه » لقوله (ألا له
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وفى الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروى مرفوعاً « اللهم لك الملك كله ولك
الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله »

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْحَابِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم فقال (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) قيل
معناه تذلا واستكانة ، وخيفة كقوله (واذا كر ربك فى نفسك) الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال رفع الناس
أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غابا إن
الذى تدعون سميع قريب » الحديث ، وقال ابن جرير عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله (تضرعا وخفية) قال
السر وقال ابن جرير تضرعا تذلا واستكانة لطاعته وخفية يقول بحسوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما
بينكم وبينه لاجهارا مرأاة وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال إن كان الرجل لقد جمع القرآن
وما يشعر به الناس وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى
بيته وعند الزور وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعاوه فى السر فيكون
علانية أبدا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله
تعالى يقول (ادعوا ربكم تضرعا وخيفة) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال (إذ نادى ربه نداء خفيا) وقال
ابن جرير يكره رفع الصوت والنداء والصبح فى الدعاء وبؤم بالضرع والاستكانة ثم روى عن عطاء الخراسانى
عن ابن عباس فى قوله (إنه لا يحب المعتدين) فى الدعاء ولا فى غيره وقال أبو مجاز (إنه لا يحب المعتدين) لا يسأل منازل
الأنبياء ، وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن زياد بن مخرق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن
سعدا سمع ابنا له يدعو وهو يقول اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحو من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها
وأغلالها فقال لقد سألت الله خيرا كثيرا وتعوذت به من شر كثير وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء - وفى لفظ - يعتدون فى الطهور والدعاء - وقرأ هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعا)
الآية - وإن بحسبك أن تقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من
قول أو عمل » ورواه أبو داود من حديث شعبة عن زياد بن مخرق عن أبى نعامة عن مولى لسعد عن سعد فذكره والله
أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الحريري عن أبى نعامة أن عبد الله بن مغفل
سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأيىص عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سئل الله الجنة وعذبه من النار

فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون قوم يمتدون في السماء والطهور » وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان به وأخرجه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن معبد بن إلياس الحريري عن أبي نعام وأحمد قيس بن عباية الحنفي البصري وهو إسناد حسن لا بأس به والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فهي تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتدلل لديه فقال (وادعوه خوفاً وطعناً) أي خوفاً بما عنده من ويله العقاب وطعناً فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال (إن رحمت الله قريب من المحسنين) أي إن رحمة مرسدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتكفون زواجره كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) الآية وقال قريب ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فهذا قال قريب من المحسنين وقال مطر الوراق استخرجوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمة قريب من المحسنين رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّتَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُفْرِجُ السُّوءَ لَكُمْ تَدْكُرُونَ ﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَسْكَدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر به تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال (وهو الذي يرسل الرياح مبشرات) أي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ بشرا كقوله (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) وقوله (بين يدي رحمتي) أي بين يدي المطر كما قال (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قطفوا وينزل رحمتي وهو الولي الحميد) وقال (فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لحجج الموتى وهو على كل شيء قدير) وقوله (حتى إذا أقبلت سحابة ثقالا) أي حملت الرياح سحابة ثقالا أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد ابن عمرو بن نفيل رحمه الله

وأسلمت وجهي لمن أسامت * له الزن تحمل عذابا زلالا * وأسلمت وجهي لمن أسامت * له الأرض تحمل صخرا ثقالا وقوله (سقناه لبلد ميت) أي إلى أرض ميتة مجدبة لانبات فيها كقوله (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الآية ولهذا قال (فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى) أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحى الأجساد بعد صيرورتها رميا يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتطرر الأرض أربعين يوما فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال (لعلكم تذكرون) وقوله (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه) أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سرعيا حسنا كقوله (وأنبتنا نباتا حسنا) (والذي خبث لا يخرج إلا نسكدا) قال مجاهد وغيره كالسباح ونحوها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : هذا مثل ضرب به الله للمؤمنين والسكاfer ، وقال البخاري حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد ابن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت نقية فبنت الماء فأنبت السكلا والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ففسروا وسقوا وزرعوا وأصابهم طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه مسلم والنسائي من طرق عن أبي أسامة حماد بن أسامة به

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أٰبَلْغْتُمْ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون وهو أول من خط بالقلم ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحق وغير واحد من أئمة النسب قال محمد بن إسحق ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل وقال يزيد الرقاشي إنما سمى نوح لسكرة ماناح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صوراً أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجناساً على تلك الصور فلما تبادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواها ويعوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأتم مشركون به (قال الملأ من قومه) أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم (إنا لنراك في ضلال مبين) أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبغونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفتك قديم) إلى غير ذلك من الآيات (قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا « أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول « اللهم أشهد اللهم أشهد »

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه (أوعجبتم) الآية أي لا تعجبوا من هذا فان هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم لينذركم ولتتقوا تهمة الله ولا تشركوا به (ولعلكم ترحمون) قال الله تعالى (فكذبوه) أي تبادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر (فأنجيناه والذين معه في الفلك) أي السفينة كما قال : فأنجيناه وأصحاب السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) كما قال (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقوله (إنهم كانوا قوما عمين) أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأولياته من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله (إنا لننصر رسلاً) الآية وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين

والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالعرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين وقال مالك عن زيد بن أسلم كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقمة من الأرض إلا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم وكان لسانه عربيا رواه ابن أبي حاتم وروى متصلا من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أبلغكم رسالت ربي وأنا لكم ناصح أمين * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴿

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا قال محمد بن إسحق هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد) وذلك لشهدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل قال محمد بن إسحق عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كشيئا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيتة ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه ، قال لا ولكني قد حدثت عنه فقال الحضرمي وما شأنه يا أمير المؤمنين قال فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير ، وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن فان هودا عليه السلام دفن هناك وقد كان من أشرف قومه نسبا لأن الرسل إنما يعيهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم وكانوا من أشد الأمم تكديبا للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه (قال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأهم الجمهور والسادة والقادة منهم (إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) أي في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام والاقبال على عبادة الله وحده كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا) الآية (قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) أي لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقائه بل احمداوا الله على ذاكم (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه (وزادكم في الخلق بسطة) أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت (وزاده بسطة في العلم والجسم) (واذكروا آلاء الله) أي نعمه ومننه عليكم (لعلكم تفلحون) والآلاء جمع إلى وقيل ألى

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ * قَالَ

قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِنَاءِ يَدْنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام (قالوا أجبنا لنعمدالله وحده) الآية كقول الكفار من قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقد ذكر محمد بن إسحق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناما فصم يقال له صمد وآخر يقال له صمود وآخر يقال له الهنا^(١) ولهذا قال هود عليه السلام (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أي قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس قيل هو مقلوب من رجوع عن ابن عباس معناه سخط وغضب (أجادلوني في أسماء سميتوها أنتم وعباؤكم) أي أتجاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وعباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ولهذا قال (مانزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أما كن آخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية الأخرى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية) لما مردوا وعتوا أهلكتهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فشلع رأسه حتى تبينه من بين جثته ولهذا قال (كأنهم أعجاز نخل خاوية) وقال محمد بن إسحق كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلهم هود فقال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أي يجنون (قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بري مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بجرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاود^(٢) بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهدة^(٣) ابنة الحيري^(٤) قال فبعثت عاد وفداقريا من سبعين رجلا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتعذبهم الجرادتان: قيتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القيتين أن تغنياهم به فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم * لعل الله يصحنا غماما * فيسقى أرض عاد إن عادا
قد أمسوا لا يبينون الكلاما * من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

(١) في السكية : وصوابها الهباء . (٢) في نسخة الأزهر : لاوم بالميم . (٣) في تفسير البغوي : في النسخة الهندية كهدة .
(٤) في نسخة الأزهر : الحيري

وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمست نساؤهم غيامي * وإن الوحش تأتهم جهارا
ولا تخشى لعادي سهاما * وأنتم هاهنا فيما اشتيتم * نهاركم وليلكم التماما

فقبج وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تذب القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأ الله
سحابات ثلاثا بيضاء وسوداء وحمرأ ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال :
اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمدا ، لا تبقى من عاد أحدا لا والدا
تترك ولا ولدا ، إلا جعلته همدا ، إلا بنى الوذية الهندا ، قال وبنو الوذية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب
قومهم قال وهم من بني من أنسأهم وذرايرهم عاد الأخرى قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التي اختارها قيل
ابن عنز بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تفرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض
مطرنا يقول (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء) أي تهلك كل شيء مرت به فكان أول
من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكر امرأة من عاد يقال لها يميد^(١) فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صغقت فلما أفادت
قالوا ما رأيت يا يميد ؟ قالت ريحا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما
كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي ومن معه
من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه الا ماتلين عليه الجلود وتلذ الأنفس وانها تمر على عاد بالظن ما بين السماء
والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى (ولما
جاء أمرنا نجينا هودا والدين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله ، وقال
الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل
عن الحارث البكري قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فررت بالربذة
فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي يا عبد الله إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة هل أنت مبلغني
إليه قال فحملتها فأنتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفا بين يدي رسول
الله ﷺ فقلت ماشأان الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست فدخل منزله أو قال
رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شيء قلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم
ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألته أن أحملها اليك وهاهي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله
ان رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإني أين يضطر
مضطرك قال قلت: ان مثلي مثل ما قال الأول : معزى حملت حنفا ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما أعوذ
بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لي « وما وافد عاد ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت إن عادا
قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قيل فربمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الحمر وتغنيه جارتان يقال لهما الجرادتان
فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال اللهم إنك تعلم أني لم أجد إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأداويه .
اللهم اسق عاد ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأوما إلى سحابة منها سوداء فنودي منها أخذها
رمادا رمدا ، لا تبقى من عاد أحدا قال فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى
هلكوا قال أبو وائل وصدق قال وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد هكذا رواه الإمام
أحمد في المسند ، ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائي من حديث سلام
ابن أبي المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا عن أبي وائل عن الحارث بن حسان البكري
به ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن حباب به ووقع عنده عن الحارث بن زيد البكري فذكره ورواه أيضا

(١) في النسخة المكية مهد ، وفي البغوي مهد .

عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكري فذكره ولم أر في النسخة أبواصل والله أعلم
 ﴿وَالِى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ
 نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * وَأَذْكُرُوا إِذْ
 جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُسُونَ الْجِبَالَ بَيْتُوتًا فَاذْكُرُوا
 آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِنِعْمِ اللَّهِ
 عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَأْمَنُوا أَنْ صَالِحًا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ أَخْنَدَانًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ *
 فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عائر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عائر وكذلك قبيلة طسم كل
 هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما
 بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى
 تبوك في سنة تسع قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل
 رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب
 منها ثمود فجبجبت منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم
 ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال
 «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم» وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم
 حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين
 إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» وأصل هذا الحديث مخرج
 في الصحيحين من غير وجه، وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا يزيد بن هارون السعدي عن إسماعيل بن واسط عن
 محمد بن أبي كبشة الأنماري عن أبيه قال لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ
 ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس «الصلاة جامعة» قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعنزة
 وهو يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم فغضب منهم يا رسول الله؟ قال «أفلا أنبئكم
 بأعجب من ذلك. رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فان الله لا يعاب
 بعدابكم شيئا وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا» لم يخرج أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد
 ويقال عامر بن سعد والله أعلم، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن
 أبي الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال «لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت
 — يعنى الناقة — ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما
 ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله»
 فقالوا من هو يا رسول الله قال: «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» وهذا الحديث ليس في شيء من
 الكتب الستة وهو على شرط مسلم. قوله تعالى (وإلى ثمود) أى ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا (قال ياقوم

اعبدوا الله مالكم من إله غيره) فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية) أى قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به وكانوا هم الذين سألوأ صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن يخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمنحهم فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به ولتبعنه فإسأ أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنبها بين جنبها كما سألوأ فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشرف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر بن جلهمس وكان جندع بن عمرو بن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشرف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال في ذلك رجل من مؤمفي ثمود يقال له مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله

وكانت عصبة من آل عمرو * إلى دين النبي دعوا شهابا * عزيز ثمود كلهم جميعا * فهم بأن يجيب فلو أجابا لأصبح صالح فينا عزيزا * وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا * ولكن الغواة من آل حجر * تولوا بعد رشدهم ذيابا وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يوما وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانهم كما قال في الآية الأخرى (ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) وقال تعالى (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فجج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ومنظرا رأيا إذا مرت بأنعامهم نقرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فكذبوه ففقروها فقدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) وقال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظموا بها) وقال (فعقروا الناقة) فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم ، وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها عنيزة ابنة غنم بن مجاز وتكنى أم عثمان كانت عجوزا كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانت لها بنات حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال له صدقة^(١) بنت الحيا بن زهير بن المختار ذات حسب ومال وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلا يقال له الحباب فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مخرج بن الحيا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جندع وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أيه الذي ينسب إليه وهو سالف وإنما هو من رجل يقال له صهباد ولكن ولد على فراش سالف وقالت له أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مخرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) وكانوا رؤساء في قومهم فاستألوأ القبيلة الكافرة بكاملها فطاعوهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار ابن سالف في أصل صحرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى ففرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت بنت غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فغرت ساقطة إلى الأرض ورعت رفاة واحدة تحذر سقبا ثم طعن

في لبثها فتحرها وانطلق سقيم' وهو فصيلها حتى أتى جبلا ميعبا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا فروى عبدالرزاق عن معمر
عمن سمع الحسن البصرى أنه قال يارب أين أمي ويقال إنه رغا ثلاث مرات وإنه دخل في صخرة فغاب فيها ويقال إنهم
اتبعوه ففقروه مع أمه فأنه أعلم . فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عمر الناقة وبلغ الخبر صالحا عليه السلام فجاءهم وهم
مجمعون فلما رأى الناقة بكى وقال (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) الآية وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء فلما أمسى أولئك
التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا إن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته (قالوا تقاسموا بالله
لنبينه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنما لصادقون ومكروا مكرا ومكرونا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف
كان عاقبة مكروهم) الآية فلما عزموا على ذلك وتواطوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله سبحانه وتعالى
وله العزة ورسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجلا قبل قومهم وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من
أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة
ووجوههم محمرة وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أصبحوا من يوم
الأحد وقد تخطوا وقعدوا ينتظرون نعمة الله وعذابه عيانا بالله من ذلك لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم
العذاب وأشرفت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس
في ساعة واحدة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أى صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير
لا ذكر ولا أنثى قالوا إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها الثريعة وكانت كافرة شديدة العداوة
لصالح عليه السلام فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيا من
الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت قال علماء التفسير ولم يبق من
ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى الله عنهم إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النعمة
بقومه مقيا إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله وقد تقدم
في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون
الطائف قال عبد الرزاق عن معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال « أتدرون
من هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان في حرم الله فأنه حرم الله
عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاها ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيا فمهم
فبحثوا عنه فاستخرجوا العصن » وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا
الوجه ، وقد روى متصلا من وجه آخر كما قال محمد بن إسحق عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير قال سمعت
عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمرنا بقبر فقال « هذا قبر
أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفن عنه فلما خرج أصابته النعمة التي أصابت قومه بهذا
المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أتم نبشتم عنه أصبتموه فابتدروه الناس فاستخرجوا
منه العصن » وهكذا رواه أبو داود عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن ابن إسحق به
قال شيخنا أبو الحجاج المزى وهو حديث حسن عزيز (قلت) تفرد بوصله بجير بن أبي بجير هذا وهو شيخ لا يعرف إلا
بهذا الحديث ، قال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير إسماعيل بن أمية (قلت) وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم
في رفع هذا الحديث . وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين قال شيخنا أبو الحجاج بعد أن
عرضت عليه ذلك وهذا محتمل والله أعلم

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾

هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإياهم عن قبول الحق

وإعراضهم عن الهدى إلى العمى قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريبا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول « يا أبا جهل بن هشام يا عبثة بن ربيعة يا شبعة ابن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا » فقال له عمر يا رسول الله ماتكم من أقوام قد جيفوا فقال « والذي نفسى بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » وفي السيرة أنه عليه السلام قال لهم « بس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآوأتني الناس وقالتتموني ونصرني الناس فبس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه (لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم) أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ولهذا قال (ولكن لا تحبون الناصحين) وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمته كان يذهب بقيق في الحرم حرم مكة والله أعلم، وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال (يا أبا بكر أي واد هذا ؟) قال هذا وادي عسفان قال « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف أزهرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق » هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرج أحد منهم

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (لوطا) أو تقديره (و) إذ كر (لوطا) إذ قال لقومه (و لوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم وهو إتيان الله كور دون الاناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله قال عمرو بن دينار في قوله (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) قال مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكر آء يعلو ذكرا ولهذا قال لهم لوط عليه السلام (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) أي عدلتن عن النساء وما خلق لكم ربيك منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل لانه وضع الشيء في غير محله ولهذا قال لهم في الآية الأخرى (هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) أي لقد علمت أنه لأرب لنا في النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك نسائهم كن قد استغنين بعضهم ببعض أيضاً

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ * إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾

أى ما أجابوا لوطا إلا أن هموا بإخراجه وبقية ومن معه من بين أظهرهم فأخرجهم الله تعالى سالما وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى (إنهم أناس يتطهرون) قال قتادة عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أذبار الرجال وأذبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فأنجينا لوطا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) إلا امرأته فانها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تعالىهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعتم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولأعادها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين وقيل من المالكين وهو تفسير باللازم ، وقوله (وأمطرنا عليهم مطرا) مفسر بقوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعباد) ولهذا قال (فانظر كيف كان عقوبة المجرمين) أى انظريا محمد كيف كان عقوبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقي من شاقق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرمم سواء كان محصنا أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الدراوردي عن عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وقال آخرون هو كالزاني فان كان محصنا رجم ، وإن لم يكن محصنا جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعى ، وأما إتيان النساء فى الأديار فهو اللوطية الصغرى وهو حرام باجماع العلماء إلا قولاشاذا لبعض السلف وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال واسمه بالسريانية يثرون (قلت) مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى يقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وهم أصحاب الأيكة كما سذكركه إن شاء الله به الثقة (قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءكم بينة من ربكم ، أى قد أقام الله الحجج والبيئات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا الكيل والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أى لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص الكيل والميزان خفية وتديسا كما قال تعالى (ويل للطففين — إلى قوله — لرب العالمين) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذى يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَدَّرْكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ بِحَكْمِ اللَّهِ يَبْيَنَّا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أى توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم قال السدى وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد (ولا

تعدوا بكل صراط توعدون) أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه والأول أظهر لأنه قال (بكل صراط) وهو الطريق وهذا الثانى هو قوله (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) أى وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) أى كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أى من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله . وقوله (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) أى قد اختلفتم على (فاصبروا) أى انتظروا (حتى يحكم الله بيننا) وبينكم أى يفصل (وهو خير الحاكمين) فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبا ومن معه من المؤمنين فى توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنبي عن القرية أو الاكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فياهم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة ، وقوله (أو لو كنا كارهين؟) يقول أو أتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فانا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أتم فيه فقد أعظمنا القرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) وهذا رد إلى الله مستقيم فانه يعلم كل شىء وقد أحاط بكل شىء علما (على الله توكلنا) أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نندر (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أى احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم (وأنت خير الفاتحين) أى خير الحاكمين ، فانك العادل الذى لا يجور أبدا

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّا لَنَجْعَلَنَّكُمْ إِذَا لَحَسِرُونَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لحاسرون) فلهدا عقبه بقوله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرفجوا شعيبا وأصحابه وتوعدهم بالجلاء كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال (ولما جاءهم أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تهكموا به فى قولهم (أصلاتك تأمرك) الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم ، وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وما ذاك إلا لأنهم قالوا فى سياق القصة (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهى سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخدمت الأجسام (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ثم قال تعالى (كأن لم يعنوا فيها) أى كأنهم لما أصابهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لتليلهم (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين)

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾
 أى فتولى عنهم وقال يقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ؟
 (يقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أى قد أدت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلماذا قال (فكيف آسى على قوم كافرين ؟)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء . يعنى بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يضرعون ، أى يدعون ويخشعون ويتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام انه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئا من الذى أراد منهم فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى حولنا الحال من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا وقوله (حتى عفوا) أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم يقال عفا الشيء إذا كثر . (وقالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) يقول تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينبوا إلى الله فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا ولا اتهموا بهذا ولا بهذا ، وقالوا قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يفتنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين « عجا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، ولهذا جاء في الحديث « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج تقيا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري قيم ربطه أهله ولا قيم أرسلوه » أو كما قال ، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) أى أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أى على بغتة وعدم شعور منهم أى أخذناهم فجأة كما في الحديث « موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر »

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) أى ما آمنت قرية بتامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب كما قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمنعناهم إلى حين) وقال تعالى (وما أرسلنا في قرية من نذير) الآية وقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) أى قطر السماء ونبات الأرض قال تعالى (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أى ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالمهلك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ثم قال تعالى محوفا ومخذرا من مخالفة أوامره والتجرو على

زواجره (أفأمن أهل القرى) أى الكافرة (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا ونكالنا (بيانا) أى ليلا (وهم ناعون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أى فى حال شغلهم وغفلتهم (أفأمنوا مكر الله) أى بأسه ونعمته وقدرته عليهم وأخذهم إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن

﴿ أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم وكذا قال مجاهد وغيره وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها يقول تعالى أولم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يقول أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم (ونطبع على قلوبهم) يقول ونختم على قلوبهم (فهم لا يسمعون) موعظة ولا تذكرا (قلت) وهكذا قال تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وقال تعالى (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) وقال (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى هل ترى لهم شخصا أو تسمع لهم صوتا وقال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لهم وأرسلنا الساء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا فكيف كان نكير) وقال تعالى (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) وقال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيرا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نعمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر اليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى (تلك القرى نقص عليك) أى يا محمد (من أنبأها) أى من أخبارها (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) أى الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما

كذبوا من قبل) الباء سببية أى فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاة ابن عطية رحمه الله وهو متجه حسن كقوله (وما يشعرم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية ولهذا قال هنا (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم) أى لأكثر الأمم الماضية (من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاستين) أى ولقد وجدنا أكثرهم فاستقين خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذى أخذوه ما جابلهم عليه وفطرم عليه وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربههم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفى الفطر السليمة خلاف ذلك وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى «إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم» وفى الصحيحين «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث وقال تعالى فى كتابه العزيز (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله تعالى (واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) إلى غير ذلك من الآيات وقد قيل فى تفسير قوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ما روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أى فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك وكذا قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب عن أنس واختاره ابن جرير وقال السدى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها وقال مجاهد فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) هذا كقوله (ولو ردوا لعادوا) الآية

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾
يقول تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى الرسل للتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين (موسى بآياتنا) أى بجهتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر فى زمن موسى (وملئه) أى قومه (فظلموا بها) أى جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعنادا كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله أى انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقتناهم عن آخرهم برأى من موسى وقومه وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه وأشنى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعَوْنَ إِيَّيْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامة إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى (وقال موسى بفرعون إنى رسول من رب العالمين) أى أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربهم ومليكهم (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) فقال بعضهم معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق أى جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبجمال حسنة وقال بعض المفسرين معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق وقرأ آخرون من أهل المدينة حقيق على بمعنى واجب وحق على ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه (قد جئتكم ببينة من ربكم) أى بحجة قاطعة من الله أعطانها دليلا على صدقى فيما جئتكم به (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربك وربهم

فانهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن (قال إن كنت جثت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين) أى قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت فإن كانت معك حجة فأظهرها لراها إن كنت صادقا فيما ادعيت

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ثعبان مبين) الحية الله كره وكذا قال السدي والضحاك وفي حديث الفتون من رواية يزيد بن هارون بن الأصبح بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (فألقي عصاه) فتحولت حية عظيمة فاغرة فاهامسرة إلى فرعون فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وقال قتادة تحولت حية عظيمة مثل المدينة وقال السدي في قوله (فإذا هي ثعبان مبين) الثعبان الذي ذكر من الحيات فاتحة فاهها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأطى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح يا موسى خذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا ، وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا ، وقال وهب بن منبه لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون أعرفك قال نعم قال (ألم نربك فينا وليدا) قال فرد إليه موسى الذي رد فقال فرعون خذوه فبادر موسى (فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين) فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت رواه ابن جرير والإمام أحمد في كتابه الزهد وابن أبي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم وقوله (ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلأأ من غير برص ولا مرض كما قال تعالى (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) الآية وقال ابن عباس في حديث الفتون: من غير سوء يعنى من غير برص ثم أعادها إلى كفه فعادت إلى لونها الأول وكذا قال مجاهد وغير واحد

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أى قال الملأ وهم والجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه واستقر على سريره مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله (إن هذا لساحر عليم) فوافقوه وقالوا كقواته وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإحماد كلمته وظهور كذبه وإفترائه وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يمتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فلما تشاوروا في شأنه واتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاسِرِينَ * يَا تُورِكُ بَكَلٍ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

قال ابن عباس (أرحه) أخره وقال قتادة احبسه (وأرسل) أى ابعث (في المدائن) أى في الأقاليم ومدائن مملكك (خاسرين) أى من يحسر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبه سحرتهم فلهمذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراه من البيئات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتيك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحسر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى) وقال تعالى ههنا

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَمُنَّ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَلْمُقَرَّبِينَ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء اجزيلا فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن للقلقين) أى قبلك كما قال في الآية الأخرى (وإما أن نكون أول من ألقى) فقال لهم موسى عليه السلام ألقوا أى أتم أولاء قيل الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لحيثه فيكون أوقع في النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال كما قال تعالى (فإذا جبالهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوحس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأطى * وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : ألقوا جبالا غلاظا وخشبا طوالا قال فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى وقال محمد بن إسحق صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر جباله وعصيه وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يشكى على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشرف أهل مملكته ثم قال السحرة (يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا جبالهم وعصيم) فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الجبال والعصى فإذا حيات كأمثال الجبال قدملات الوادى يركب بعضها بعضا وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) يقول فرقومهم أى من الفرق وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن أبي برة قال جمع فرعون سبعين ألف ساحر فألقوا سبعين ألف جبل وسبعين ألف عصا حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ولهذا قال تعالى (وجاءوا بسحر عظيم)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَكُونَ *

فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقى ما في يمينه وهى عصاه (فإذا هى تلقف) أى تأكل (ما يافكون) أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل قال ابن عباس فجعلت لأمر بشيء من جبالهم ولا من خشبهم إلا التقتته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر فخرروا سجدا وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) وقال محمد بن إسحق جعلت تتبع تلك الجبال والعصى واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فإذا هى عصا في يده كما كانت ووقع السحرة سجدا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لو كان هذا ساحرا ما غلبنا وقال القاسم ابن أبي برة أوحى الله إليه أن ألقى عصاك فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين فاغرفاه يتلع جبالهم وعصيم فألقى السحرة عند ذلك سجدا فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنتمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَكُرْهُمُ مَكْرُومَةٌ فِى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا ءَٰهْلَهَا

فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ ثُمَّ لَا صَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ *
وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِبَيِّنَاتٍ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيدته ومكره في قوله (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) أى إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى (إنه لسكبركم الذى علمكم السحر) وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذى قاله من أبطال الباطل فان موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر بمن اختار هو والملا من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالبطء الجزيل ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون . وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تستترا وتدليسا على رعاى دولته وجهاتهم كما قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) فان قوما صدقوه في قوله (أناربكم الأملئى) من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدى في تفسيره بإسناده المشهود عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) قال التقي موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى رأيتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ماجئت به حق قال الساحر لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتنى لأؤمنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر إليهما قالوا فلهذا قال ما قال ، وقوله (لتخرجوا منها أهلها) أى تجتمعوا أتم وهو وتكون لكم دولة وصوله وتخرجوا منها الأكارب والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم (فسوف تعلمون) أى ما أصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف) يعنى يقطع يد الرجل اليمى ورجله اليسرى أو بالعكس (ولأصلبكنم أجمعين) وقال في الآية الأخرى (فى جذوع النخل) أى على الجذوع قال ابن عباس وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون وقول السحرة (إننا إلى ربنا منقلبون) أى قد تحققنا أننا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونسكاله على ماتدعوننا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نسكالك فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ولهذا قالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه (وتوفنا مسلمين) أى متابعين لنبىك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون (فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إننا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى *) إنه من يأت ربه محرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأت مؤمناً قديماً الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى فكانوا فى أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخره شهداء بررة ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جرير كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخره شهداء

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقْتَلُ
أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالَ أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ
رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿

يخبر تعالى عما تمألاً عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة (وقال

الملا من قوم فرعون) أى لفرعون (أتذرموسى وقومه) أى أتدعهم ليفسدوا فى الأرض أى يفسدوا أهل رعيك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك يا لله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ولهذا قالوا (ويذرك وآهلك) قال بعضهم الواو هنا حالة أى أتذره وقومه يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب وقد تركك أن يبدوك وآهلك حكاة ابن جرير وقال آخرون هى عاطفة أى أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وحلى ترك آهلك وقرأ بعضهم إلهتك أى عبادتك وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره وحلى القراءة الأولى قال بعضهم كان لفرعون إله يعبده قال الحسن البصرى كان لفرعون إله يعبده فى السر وقال فى رواية أخرى كان له حنانة فى عنقه معلقة يسجد لها وقال السدى فى قوله تعالى (ويذرك وآهلك) وآلته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامرى عجلا جسدا له خوار. فأجابهم فرعون فيما سأله بقوله سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نسلهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرا من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل فى صنيعة أيضا لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: أعزم الله وأذله وأرغم أنه وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم فى قوله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) * قال أوزينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) أى قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) الآية وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحُسْنَىٰ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون) أى اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم (بالسنين) وهى سنين الجوع بسبب قلة الزروع (ونقص من الثمرات) قال مجاهد وهو دون ذلك وقال أبو إسحق عن رجاء بن حيوة كانت النخلة لا تحمل إلامرة واحدة (لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة) أى من الحصب والرزق (قالوا لنا هذه) أى هذا لنا بما نستحقه (وإن تصيبهم سيئة) أى جذب وقحط (يطيرون بموسى ومن معه) أى هذا بسببهم وما جاءوا به (ألا إنما طائرهم عند الله) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ألا إنما طائرهم عند الله) يقول مصائبهم عند الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال ابن جريج عن ابن عباس قال (ألا إنما طائرهم عند الله) أى من قبل الله

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم (مهما

تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) يقولون أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا تقبلها منك ولا تؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) اختلفوا في معناه فعن ابن عباس في رواية كثرة الأمطار الغرقة المتلفة للزروع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس في رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير حدثنا ابن هشام الرفاعي حدثنا يحيى بن يمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به وهو حديث غريب وقال ابن عباس في رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) وأما الجراد فعرف مشهور وهو ما كول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ، وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « أحلت لنا ميتتان ودمان . الحوت والجراد والسكبد والطحال » ورواه أبو القاسم البغوى عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبي تمام الأيلي عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله ، وروى أبو داود عن محمد بن الفرغ عن محمد بن زبرقان الأهوازي عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه ، وقد روى الحافظ ابن عساکر في جزء جمعه في الجراد من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوى حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد حدثنا يحيى بن خاله عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ وسلم لا يأكل الجراد ولا السكوتين ولا الضب من غير أن يجرمها أما الجراد فرجز وعذاب . وأما السكوتان فلقرههما من البول ، وأما الضب فقال « أتخوف أن يكون مسخا » ثم قال غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشبهه ويجه فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال ليت أن عندنا منه ققعة أو قفتين نأكله ، وروى ابن ماجه حدثنا أحمد بن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال سمع أنس بن مالك يقول كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق ، وقال أبو القاسم البغوى حدثنا داود بن رشيد حدثنا بقية بن الوليد عن يحيى بن يزيد القعني حدثني أبي عن صدى بن عجلان عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « إن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربه عز وجل أن يطعمها لحما لادم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشها بغير رضاع وتابع بينه بغير شياخ » وقال نعيم الشيبان الصوت وقال أبو بكر بن أبي داود حدثنا أبو بقی هشام بن عبد الملك المزني حدثنا بقية بن الوليد حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي زهير النخيري قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقاتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم » غريب جداً وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد) قال كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب ، وروى ابن عساکر من حديث علي بن زيد الخرائطي عن محمد بن كثير سمعت الأوزاعي يقول خرجت إلى الصحراء فإذا أنا برجل من جراد في السماء فإذا برجل راكب على جرادة منها وهو شاك في الحديد وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل ما فيها ، وروى الحافظ أبو الفرج العافى بن زكريا الحريري حدثنا محمد بن الحسن بن زياد حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن الأعمش أنبأنا عامر قال سئل شريح القاضي عن الجراد فقال قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس . وعنقها عنق ثور . وصدرها صدر أسد . وجناحها جناح نسر . ورجلاها رجل حمل وذنبها ذنب حية . وبطنها بطن عقرب . وقدمنا عند قوله تعالى (أهل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) حديث حماد بن صامه عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصى ونحن

محمرون فسألنا رسول الله ﷺ فقال « لا بأس بصيد البحر » وروى ابن ماجه عن هرون الحماني عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علاله وعن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أنس وحابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال « اللهم أهلك كباره واقتل صفاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا إنك صميع الدعاء » فقال له جابر يارسول الله أمدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال « إنما هو شرة حوت في البحر » قال هشام أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفتس كله جرادا طيارا . وقدمنا عند قوله (إلا أمم أمثالكم) حديث عمر رضی الله عنه ان الله خلق ألف أمة ستائة في البحر وأربعائة في البر وان أولها هلاك الجراد ، وقال أبو بكر بن أبي داود حدثنا يزيد بن المبارك حدثنا عبد الرحمن بن قيس حدثنا سلم بن سالم حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « لا وباء مع السيف ولا لحاء مع الجراد » حديث غريب ، وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبا وهو الجراد الصغار الذي لأجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبیر القمل دواب سود صفار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث ، وقال ابن جرير القمل جمع واحدها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني وهي التي عناها الأعشى بقوله :

قوم يعالج قملا أنباؤهم * وسلاسلا أجدآ وبابا موصدا

قال وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحنآن واحدها حمنانة وهي صفار القردان فوق القمقامة . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن حميد الرازي حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبیر قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فأثبت لهم في تلك السنة شيئا لم ينبت قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ فقالوا هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع ، فقالوا ياموسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعاه ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداسوا وأحزروا في البيوت فقالوا قد أحزرتنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجرية إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أفضة فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع تقيق ضفدع فقال لفرعون ماتلتي أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل^(١) فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا فأتوه وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، وقد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولاً ثم أبي إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذ بالسنين وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل . ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركده لا يقدررون

(١) كذا في جميع النسخ ، ولعله سقط منه ، فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع .

على أن يحرقوا ولا أن يعموا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفت عنا الرجاء لنؤمن لك ولترسل معك بنى إسرائيل) فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى إن كان لياً كل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كتيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فاثال عليهم قمل حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فثالت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يعترفون من إناء إلا عاد دما عيطا. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الروزى أنبأنا النضر أنبأنا إسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمر وقال: لا تقتلوا الضفادع فإنها لما أرسلت على قوم فرعون انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار يطلب بذلك مرضاة الله فأبدطن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء وجعل تقيهن التسبيح، وروى من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه، وقال زيد بن أسلم: يعنى بالدم الرعاف. رواه ابن أبي حاتم

﴿ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذى فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورد فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتعافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغربها كما قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين) وعن الحسن البصرى وقتادة في قوله (مشارق الأرض ومغربها التى باركنا فيها) يعنى الشام، وقوله (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) قال مجاهد وابن جرير وهى قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقوله (ودمرونا ما كان يصنع فرعون وقومه) أى وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع (وما كانوا يعرشون) قال ابن عباس ومجاهد (يعرشون) يبنون:

﴿ وَجَوْرْنَا يَلْبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرٌ مِّمَّاهُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه مارأوا (فأتوا) أى فروا (على قوم يعكفون على أصنام لهم). قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين وقيل كانوا من لحم

قال ابن جرير وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر فلهمذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) أى تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه) أى هالك (وباطل ما كانوا يعملون) وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحق وعقيل ومعمّر كلهم عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال ققلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال « قلت والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبي الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كالللكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم تركبون سنان من قبلكم » أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعا

﴿ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إقناذهم من أسرفعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والدلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم تفسيرها في البقرة

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ أَلَمَلِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَرْمٍ مِّمَّةٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ممثنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام وطواها فلما تم الليقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الليقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) فلما تم الليقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن) الآية فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الفساد. وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ

سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكلم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني) وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأييد فاسندل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى (وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة) وقوله تعالى إخبارا عن الكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقيل انها لنفي التأييد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة وقيل إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وقد تقدم ذلك في الأنعام وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام «ياموسى أنه لا يراى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) قال أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن سهيل الواسطى حدثنا قرة بن عيسى حدثنا الأعمش عن رجل عن أنس عن النبي ﷺ قال لما تجلّى ربه للجبل أشار باصبعه فجعله دكا وأرانا أبو إسماعيل باصبعه السبابة ، هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال حدثني المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد عن ليث عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) قال: هكذا باصبعه ، ووضع النبي ﷺ باصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخت الجبل هكذا وقع فى هذه الرواية حماد بن سلمة عن ليث عن أنس والمشهور حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس كما قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا هذبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) قال : ووضع الإبهام قريبا من طرف خنصره ، قال : فساخت الجبل ، قال حميد لثابت يقول هكذا فرجع ثابت يده ففرض صدر حميد وقال يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس وأنا أكنمه ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ الغنبرى حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ فى قوله (فلما تجلّى ربه للجبل) قال : قال : هكذا ، يعنى أنه أخرج طرف الخنصر قال أحمد أرانا معاذ فقال له حميد الطويل ما تريد إلى هذا يا أبا محمد قال ففرض صدره ضربة شديدة وقال من أنت يا حميد وما أنت يا حميد حدثني به أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما تريد إليه ؟ وهكذا رواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به ثم قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن على الخلال عن محمد بن على بن سويد عن أبي القاسم البغوى عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال هذا إسناد صحيح لا علة فيه ، وقد رواه داود بن المخبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعا وهذا ليس بشيء لأن داود بن المخبر كذاب رواه الحافظان أبو القاسم الطبرانى وأبو بكر بن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعا بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريق ابن اليمانى عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا ولا يصح أيضا، رواه الترمذى وصححه الحاكم وقال على شرط مسلم وقال السدى عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله تعالى (فلما تجلّى ربه للجبل) قال ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر (جعله دكا) قال ترابا (وخر موسى صعقا) قال مغشيا عليه رواه ابن جرير وقال قتادة (وخر موسى صعقا) قال ميتا وقال سفيان الثورى ساخت الجبل فى الأرض حتى وقع فى البحر فهو يذهب معه وقال سنيد عن حجاج بن محمد الأعور عن أبى بكر الهذلى (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) اتقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة وجاء فى بعض الأخبار أنه ساخت فى الأرض فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة رواه ابن مردويه وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمر بن شيبه حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى حدثنا

عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله عن الجلد بن أيوب عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال « لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقع بمكة حراء وثبير وثور » وهذا حديث غريب بل منكر وقال ابن أبي حاتم ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي البلخ حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة بن رويم قال كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صها ملساء فلما تجلى الله لموسى على الطور ذك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف وقال الربيع بن أنس (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل ذلك من الدكاك وقال بعضهم جعله دكا أي فتنة وقال مجاهد في قوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فإنه أكبر منك وأشد خلقا (فلما تجلى ربه للجبل جعله) فنظر إلى الجبل لا يتالك وأقبل الجبل فذلك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة جعله دكا قال نظر الله إلى الجبل فصار صحرا ترابا وقد قرأ بهذا القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشى هاهنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحا في اللغة كقوله تعالى (ونفخ في الصور ففسق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى وهي قوله (فلما أفاق) والافاقة لا تكون إلا عن غشى (قال سبحانه) تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد في الدنيا لإمات وقوله (ثبت إليك) قال مجاهد أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد من بني إسرائيل واختاره ابن جرير وفي رواية أخرى عن ابن عباس (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك أحد وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك انه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة وهذا قول حسن له اتجه وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثرا طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم ، وقوله (وخر موسى صعقا) فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا فقال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه ، وقال يا محمد إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال « ادعوه » فدعوه قال « لم لطمت وجهه ؟ » قال يا رسول الله إنني مررت باليهودي فسمعتة يقول والذي اصطفى موسى على البشر قال وعلى محمد وعلى محمد وأخذتني غضبة فلطمته فقال « لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور » وقد رواه البخاري في أما كن كثيرة من صحيحه ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه وأبو داود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني عن أبيه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري به . وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال استب رجلان من المسلمين ورجل من اليهود فقال للمسلم والذي اصطفى محمدا على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودي فلطمه فأبى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل » أخرجه في الصحيحين من حديث الزهري به . وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار وهذا هو أصح وأصح وأصح والله أعلم والكلام في قوله عليه السلام « لا تخيروني على موسى » كالكلام على قوله « لا تفضلوني على الأنبياء ولا على

يونس بن متى « قيل من باب التواضع وقيل قبل أن يعلم بذلك ، وقيل نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب وقيل على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي والله أعلم ، وقوله « فإن الناس يصعقون يوم القيامة » الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه والله أعلم به وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلي لاختلاق الملك الديان كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ولهذا قال عليه السلام « فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور » وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه الشفاء بسنده عن محمد بن محمد ابن مرزوق حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ » ثم قال ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى انتهى ما قاله وكأنه صحح هذا الحديث وفي صحته نظر ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى منتهاه والله أعلم

﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ
وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم وبعده في الشرف والفضل إراهم الخليل عليه السلام ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له (فخذ ما آتيتك) أي من الكلام والناجاة (وكن من الشاكرين) أي على ذلك ولا نطلب مالا طاقة لك به ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء قيل كانت الألواح من جوهر وان الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال والحرام وكانت هذه الألواح مشتعلة على البوراة التي قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس) وقيل الألواح أعطاها موسى قبل التوراة فأنه أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه والله أعلم (وقوله فخذها بقوة) أي بعزم على الطاعة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه وقوله (سأريكم دار الفاسقين) أي سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، قال ابن جرير وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن مخاطبه سأريك غدا إلى ما يصير اليه حال من خالف أمرى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى وقيل معناه (سأريكم دار الفاسقين) أي من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعِزِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) أى سأسمع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي لقلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال بعض السلف لا ينال العلم حي ولا مستكبر وقال آخر من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ، وقال سفيان بن عيينة في قوله (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي قال ابن جرير وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا والله أعلم ، وقوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقوله (وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً) أى وإن ظهر لهم سبيل الرشداً طريق النجاة لا يسلكوها وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أى كذبت بها قلوبهم (وكانواعها غافلين) أى لا يعملون بما فيها . وقوله (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم) أى من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى المات حبط عمله وقوله (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى إنما نجازهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدين تدان .

﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْبٍ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار والحوار صوت البقر وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة (قال فاناقد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين والله أعلم ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا هذا الحكم وإله موسى فنسى قال الله تعالى (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً) وقال في هذه الآية الكريمة (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً) ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذوهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ « حبك الشيء يعمى ويصم » وقوله (ولما سقط في أيديهم) أى ندموا على ما فعلوا (ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) وقرأ بعضهم لئن لم ترحمنا بالثناء المثناة من فوق ربنا منادى وتغفر لنا (لنكونن من الخاسرين) أى من المهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي

الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى القومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو السرداء الأسف أشد الغضب (قال بشما خلفتموني من بعدى) يقول بس ما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله (أعجلتم أمر ربكم) يقول استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى وقوله (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) قيل كانت الألواح من زمرد وقيل من باقوت وقيل من بردوقيل من سدروفى هذا دلالة على ما جاء في الحديث « ليس الخبر كالمائة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضعون وأفأكون وزنادقة وقوله (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) خوفاً أن يكون قد قصر في نهيمهم كما قال في الآية الأخرى (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي) وقال هاهنا (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) أى لا تسقى مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال : ابن أم ليكون أرق وأنجح عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى (ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري) فعند ذلك (قال) موسى (رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « یرحم الله موسى لیس المعاین کالخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رأهم وعانهم ألقى الألواح »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وِذَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ *

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠١﴾

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضا كما تقدم في سورة البقرة (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) وأما الدلة فأعقبهم ذلك دلا وصغاراً في الحياة الدنيا وقوله (وكذلك نجزي المفتريين) نائلة لكل من افتري بدعة فان ذل البدعة ومخالفة الرشد متصلة من قلبه على كنفه كما قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطققت بهم البراذين : وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية (وكذلك نجزي المفتريين) فقال هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة كل صاحب بدعة دليل ، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عاقب هذه القصة بقوله (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك) أى يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة (من بعدها) أى من بعد تلك العلة (لغفور رحيم) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عذرة عن الحسن العرنى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعنى عن الرجل يزنى بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى (ولما سكت) أي سكن (عن موسى الغضب) أي غضبه على قومه (أخذ الألواح) أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبا له (وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) يقول كثير من المفسرين إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب وزعموا إن رضاضها لم يزل موجودا في خزائن الملوك من بني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام ، وقال قتادة: في قوله تعالى (أخذ الألواح) قال رب اني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة أنا جليلهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قباهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم قال رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقانلون فصول الضلالة حتى يقانلون الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب اني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلوها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة قبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلها وان ردت عليه فتأكلها السباع والطيور وان الله أخذ صدقاتهم من غنيمهم لفقيرهم قال رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة هم المشفوعون والشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد . قال فإذ ذكروا لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلني من أمة أحمد .

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَرَبُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ * وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ ﴿

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختر سبعين رجلا فبرزهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) الآية وقال السدي إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا (واختار موسى قومه سبعين رجلا) على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا (لن نؤمن لك) يا موسى (حق نرى الله جهرة) فانك قد كلفته فأرناه (فأخذتهم الصاعقة) فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) وقال محمد بن إسحق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا واطهروا ثيابكم خفج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقائه به لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعلم فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود النعام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلفه الله وقع على جهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في النعام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه ففعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى النعام فأقبل إليهم فقالوا يا موسى (لن نؤمن لك حتى

نرى الله جهره فأخذتهم الرجفة) وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فأتوا جميعا فقام موسى يناشده ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) قد سفهوا ، أفتهلك من ورأى من بنى إسرائيل وقال سفيان الثوري حدثني أبو إسحق عن عمارة بن عبيد السلولى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال انطلق موسى وهارون وشبر وشبير فانطلقوا إلى سفح جبل فقام هارون على سرير فتوفاه الله عز وجل فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له أين هارون قال توفاه الله عز وجل قالوا أنت قتلتنا حسدنا على خلقه ولينه أو كلمة نحوها قال فاخترنا من شئنا قال فاخترنا سبعين رجلا قال فذلك قوله تعالى (واختر موسى قومه سبعين رجلا) فلما اتهموا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلتني أحد ولكن توفانى الله قالوا يا موسى لن تعصى بعد اليوم فأخذتهم الرجفة قال فجعل موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالا وقال يا رب (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم هذا أثر غريب جدا وعمارة بن عبيد هذا لا أعرفه وقد رواه شعبة عن أبي إسحق عن رجل من بنى سلول عن علي فذكره وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزيلوا قومهم فى عبادتهم العجل ولا نهوهم ويتوجه هذا القول بقول موسى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) وقوله (إنا هي إلا فتنتك) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ولا معنى له غير ذلك يقول ان الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان . تضل من تشاء وتهدى من تشاء ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لما أعطيت فإلك كله والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر وقوله (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه فى مثله فى المستقبل (وأنت خير الغافرين) أى لا يغفر الذنب إلا أنت (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أى أوجب لنا وأثبت لنا فيها حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة فى سورة البقرة (إنا هدنا إليك) أى تبنا ورجعنا وأبنا إليك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد وهو كذلك لفة ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن جابر عن عبد الله بن يحيى عن علي قال إنما سميت اليهود لأنهم قالوا (إنا هدنا إليك) جابر هو ابن يزيد الجعفى ضعيف

﴿ قَالَ عَدَايَ أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مجيبا لنفسه فى قوله (إن هي إلا فتنتك) الآية قال (عدائي أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء) أى أفعل ما أشاء وأحكم ما أريدولى الحكمة والعدل فى كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو ، وقوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء) آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا الجريرى عن أبى عبد الله الجشمى حدثنا جندب هو ابن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم علقها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقابها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى ومحمد ولا تشرك فى رحمتنا أحداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتقولون هذا أضل أم بعيره أم تسمعوا ما قال ؟ » قالوا بلى قال « لقد حظرت رحمة واسعة ان الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنبها وانسها وبها تمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » رواه أحمد وأبو داود عن علي بن نصر عن عبد الصمد بن عبد الوارث

به ، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبي عثمان عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يترحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » تفرد بإخراجه مسلم فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان وداود بن أبي هند كلاهما عن أبي عثمان واسمه عبد الرحمن بن مل عن سلمان هو الفارسي عن النبي ﷺ به ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله مائة رحمة عنده تسعة وتسعون وجعل عندكم واحدة تترحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لله مائة رحمة قسم منها جزءا واحدا بين الخلق به يترحم الناس والوحش والطيور » ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن الأعمش به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن بونس حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن صلة بن زفر عن حذيفة بن الجبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذي نفسى بيده ليدخلن الجنة الذى قد محشته النار بذنبه والذي نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه » هذا حديث غريب جدا وسعد هذا لا أعرفه ، وقوله (فسأ كتبها للذين يتقون) الآية يعنى فسأوجب حصول رحمتى مئة مئة وإحسانا إليهم كما قال تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله (للذين يتقون) أى سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (الذين يتقون) أى الشرك والعظائم من الذنوب قوله (ويؤتون الزكاة) قيل زكاة النفوس وقيل الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدقون

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَا أُمَّهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء بشروا أمهم ببعثه وأمروهم باتباعه ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم . كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رحل من الأعراب . قال جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت لأتقين هذا الرجل فلا تسمعن منه قال فلتقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فبتعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ « أشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال برأسه هكذا أى لا فقال ابنه أى والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ﷺ فقال « أقيموا اليهودى عن أخيكم » ثم تولى كفته والعلاة عليه هذا حديث جيد قوى له شاهد في الصحيح عن أنس ، وقال الحاكم صاحب المستدرک أخبرنا محمد بن عبد الله ابن إسحق البغوى حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس حدثنا عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاصم الأموى قال بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا العوطة يعنى عوطة دمشق فنزلنا على جبلة بن الأيهم الساساني فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له فأرسل إلينا برسوله نكلمه فقلنا والله لا نكلم رسولا وإنما بعثنا إلى الملك فإن أذن لنا كلفناه وإلا لم

نكلم الرسول فرجع اليه الرسول فأخبره بذلك قال فأذن لنا فقال تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام
فاذا عليه ثياب سود فقال له هشام وما هذه التي عليك ؟ فقال لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا
ومجاسك هذا والله لناخذنه منك ولناخذن مالك الملك الأعظم إن شاء الله أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ قال :
لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل فكيف صومكم ؟ فأخبرناه فلىء وجهه سوادا فقال قوموا
وبعث معنا رسولا إلى الملك فخرجنا حتى إذا كنا قريبا من المدينة قال لنا النبي معنا إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة
الملك فإن شئتم حملناكم على برازين وبغال قلنا والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن
ندخل على رواحلنا فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له فأئخنا في أصلها وهو ينظر إلينا قلنا لا إله
إلا الله والله أكبر فإله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح . قال فأرسل إلينا ليس لكم أن
تجهروا علينا بدينكم وأرسل إلينا أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراشه وعنده بطارقة من الروم وكل شيء في مجلسه
أحمر وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة فسدنونا منه فضحك فقال ما عليكم لوجئتموني بتحييتكم فيما بينكم ؟ وإذا
عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام قلنا ان تحييتنا فما بيننا لا تحل لك تحييتك التي تحيا بها لا يحل لنا أن نخيك بها
قال كيف نخيتكم فيما بينكم ؟ قلنا السلام عليك قال فكيف تحيون ملككم ؟ قلنا بها قال فكيف يرد عليكم ؟ قلنا
بها ، قال فما أعظم كلامكم قلنا لا إله إلا الله والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه لها
قال فهذه الكلمة التي قلتوها حيث انتفضت الغرفة كما قلتوها في بيوتكم انتفضت عايكم غرفكم فلما لا ، مارأيناها
فعات هذا قط إلا عندك قال لوددت أنكم كلما قلتم انتفض كل شيء عليكم وإني قد خرجت من نصف ملكي قلنا لم ؟
قال لأنه كان أسير لسانها وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة وأنها تكون من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه
ثم قال كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه فقال قوموا فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير فأقننا ثلاثا فأرسل إلينا ليلا
فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه ثم دعا بشيء كهيئة الربة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيوتا
وقفلا فاستخرج حريرة سوداء فنشرناها فاذا فيها صورة حمراء وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الألتين لم أر مثل
طول عنقه وإذا ليست له لحية وإذا له ضفيران أحسن ما خلق الله فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا آدم عليه
السلام وإذا هو أكثر الناس شعرا ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر
كشعر الققط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا نوح عليه السلام ، ثم فتح
بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية
كأنه يبتسم فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا إبراهيم عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله
ﷺ فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم هذا محمد رسول الله ﷺ قال وبكينا قال والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس وقال والله
إنه لهو قلنا نعم إنه لهو كأنك ننظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال أما إنه كان آخر البيوت ولكني عجلته لكم
لأنظر ما عندكم ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فاذا فيها صورة آدماء سحاء وإذا رجل جمع ققط غائر العينين
حديدا للنظر عابس متراكب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا موسى عليه السلام
وإلى جنبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبل فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا هرون بن
عمران عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل آدم سبط ربة كأنه غضبان فقال هل
تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا لوط عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل
أبيض مشرب حمرة أفنى خفيف العارضين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا إسحق عليه السلام
ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة تشبه إسحق إلا أنه على شفته خال فقال هل تعرفون
هذا ؟ قلنا لا قال هذا يعقوب عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن
الوجه أفنى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف في وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة قال هل تعرفون هذا ؟

قلنا لا قال هذا إسماعيل جد نبيكم ﷺ ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه الشمس فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا يوسف عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفض العينين ضخم البطن ربعة متقلد سيفا فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا داود عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل ضخم الألبين طويل الرجلين راكب فرسا فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا سليمان بن داود عليهما السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا عيسى بن مريم عليه السلام ، قلنا من أين لك هذه الصور لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء عليهم السلام لأننا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله فقال إن آدم عليه السلام سأله أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم فكانت في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذوالقرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال ، ثم قال أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى وإنى كنت عبدا لأشركم ملكة حتى أموت ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا قال فبكى أبو بكر ، وقال مسكين لو أراد الله به خيرا لفعل ثم قال أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود بمجدون نعمت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم ، وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب دلائل النبوة عن الحاكم إجازة فذكره وإسناده لا بأس به . وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة كهفته في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للأمين أنت عيسى ورسولى اسمك التوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به قلوبا غلغا وآذانا صما وأعيننا عميا . قال عطاء ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا إلا أن كعبا قال بلغته قال قلوبا غلغويا وآذانا صموميا وأعيننا صموميا وقد رواه البخارى في صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن علي فذكره بإسناده نحوه وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وذكر حديث عبد الله بن عمرو ثم قال ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا موسى بن هرون حدثنا محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى حدثنا محمد بن عمرو بن إبراهيم من ولد جبر بن مطعم قال حدثتني أم عثمان بنت سعيد وهي جدتي عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير عن أبيه محمد بن جبير عن أبيه محمد جبير بن مطعم قال خرجت تاجر إلى الشام فلما كت بأدنى الشام لقيت رجلا من أهل الكتاب فقال هل عندكم رجل نبياً قلت نعم قال هل تعرف صورته إذا رأيته قلت نعم فأدخلني بيتا فيه صور فلم أر صورة النبي صلى الله عليه وسلم فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال فيم أتمم فأخبرناه فذهب بنا إلى منزله فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي صلى الله عليه وسلم وإذا رجل آخذ بعقب النبي ﷺ قلت من هذا الرجل القابض على عقبه قال إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبي فإنه لانبى بعده وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبي بكر رضى الله عنه وقال أبو داود حدثنا عمر بن حفص أبو عمرو الضيرى حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريرى أخبرهم عن عبد الله بن شقيق العقيلي عن الأقرع مؤذن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال بعثني عمر إلى الأسقف فدعوت له فقال له عمر هل تجدني في الكتاب قال نعم قال كيف تجدني قال أجدك قرنا فرقع عمر الدررة وقال قرن مه قال قرن حديد أمير شديد قال فكيف تجد الذي بعدى قال أجد خليفة صالحا غير أنه يؤثر قرابته قال عمر يرحم الله عثمان نلانا قال كيف تجد الذي بعده قال أحده صدا حديد قال فوضع عمر يده على رأسه وقال يادفراه يادفراه قال يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والسهم مهراق وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) هذه صفة الرسول صلى الله عليه

وسلم في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعبها سمعتك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر هو العقدي عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان هو ابن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنأ أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنأ أبعدكم منه » رواه الإمام أحمد رضي الله عنه بإسناد جيد ولم يخرج له أحد من أصحاب الكتب ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن علي رضي الله عنه قال إذا سمعتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به الذي هو أهدى والذي هو أهنى والذي هو أتقى ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن أبي عبد الرحمن عن علي رضي الله عنه قال إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه ، وقوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الجبائث) أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البجائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الجبائث قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتفصيح العقلين وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلا أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حال رفايتها وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبتته وفيه كلام طويل أيضا ، وقوله (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) أى أنه جاء بالتيسير والساحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تسرا وتطوعا ولا تخلفا » وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقال « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا نمثلنا ملاطفة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه قد فعلت قد فعلت ، وقوله (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه) أى عظموه ووقروه ، وقوله (واتبعوا النور الذي أنزل معه) أى القرآن والوحي الذي جاء به مبلغا إلى الناس (أولئك هم الفلاحون) أى في الدنيا والآخرة

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَنُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ (قل) يا أيها الناس (وهذا خطاب للأحرار والأسود والعري والعجمي) إني رسول الله إليكم جميعا (أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى) قل الله شهيد بنى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقال

عالي (ومن يكفر به الأحزاب فالنار موعده) وقال تعالى (وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قال حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن العلاء بن زيد حدثني بسر بن عبد الله حدثني أبو إدريس الخولاني قال سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاوراة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابيه في وجهه فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله ﷺ الخبر قال أبو الدرداء فغضب رسول الله ﷺ وحمل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لأنك كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل أتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت» انفرد به البخاري وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخرا بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة فأخترتها لأمتي يوم القيامة فهي لمن لا يشرك بالله شيئا» إسناد جيد ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا بكر بن مضر عن أبي الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم «لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطين أحد قبلي أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر للمي رعبا وأحلت لي الغنائم أكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها وجعلت الأرض مسجدا وطهورا أي أدركني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم والحامسة هي ما هي قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل فأخترت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناد جيد قوي أيضا ولم يخرجوه، وقال أيضا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بي من أمتي يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة» وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لميعة حدثنا أبو يونس وهو سليمان بن جبير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» تفرد به أحمد وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة وإني قد اختبأت شفاعة ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئا» وهذا أيضا إسناد صحيح ولم أرهم خروجوه والله أعلم وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضا وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة

وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة « وقوله (الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت) صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربى ومليكه الذي بيده الملك والاحياء والاماتة وله الحكم » وقوله (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم بتابعه والإيمان به (النبي الأمي) أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فانه ممنوع بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الأمي وقوله (الذي يؤمن بالله وكتابه) أي يصدق قوله وعمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه (واتبعوه) أي اسلكوا طريقه واقفوا أثره (لعلمكم تهتدون) أي إلى الصراط المستقيم

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق وبعدلون به كما قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا تلى عليهم فالحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآية وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) الآية وقال تعالى (إن الذين أتوا العلم من قبله إذا تلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً فقال حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج قوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتدروا وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقا في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس فذلك قوله (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيضا) ووعد الآخرة عيسى بن مريم قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفا وقال ابن عيينة عن صدقة أبي الهذيل عن السدي (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال قوم بينكم وبينهم نهر من شهد

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْطِطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ ائْتِنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي ونهنا على الفرق بين هذا السياق وذلك بما أغنى عن إعادته هنا والله الحمد والمنة

﴿ وَسَلَّمْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) الآية يقول تعالى لئيبه صلوات الله

وسلامه عليه (واسألهم) أى وأسأل عن هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأهم تقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في مخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لكسلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلمهم وهذه القرية هي أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) قال هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى وقال عبدالله بن كثير القارىء سمعنا أنها أيلة وقيل هي مدين وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد هي قرية يقال لها معنا بين مدين وعينونا وقوله (إذ يعدون في السبت) أى يعدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذلك (إذ تأتيتهم حيثأنهم يوم سبتهم شرعا) قال الضحاك عن ابن عباس أى ظاهرة على الماء وقال العوفي عن ابن عباس ظاهرة من كل مكان قال ابن جرير وقوله (ويوم لا يستبشرون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم) أى نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده واخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده (كذلك نبلوهم) نختبرهم (بما كانوا يفسقون) يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قوم اختلفوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطى الحرام وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله ابن بطة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل » وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن سلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله شهرورون ثقات ويصحح الترمذى بمثل هذا الاسناد كثيراً

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَلِيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتملوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً) أى لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيتهم إياهم ، قالت لهم المنكرة (معذرة إلى ربكم) قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أى فعل ذلك (معذرة إلى ربكم) أى فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (ولعلمهم يتقون) يقولون ولعل لهذا الانكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم قال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) أى فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) أى ارتكبوا المعصية (بعذاب بليس) فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فبهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عطياً فينموا ومع هذا فقد اختلف الأمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين ، وقال على بن أبى طاحه عن ابن عباس (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيتهم يوم سبتهم شرعا في ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقصدوا عليها فمضى على ذلك ماشاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلا غيا وعتوا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاء تعلمون أن هؤلاء قوم قد حرق عليهم العذاب (لم تعظون قوماً الله مهلكهم)

وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى فقالوا (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة ، وروى العوفي عن ابن عباس قريبا من هذا ، وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال ما أدرى أنجنا الذين قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أم لا ؟ قال فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثني رجل عن عكرمة قال جئت ابن عباس يوما وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنومنه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقامت ما يبكيك يا ابن عباس جعاني الله فذاك ؟ قال فقال هؤلاء الورقات قال وإذا هو في سورة الأعراف قال تعرف آيلة ؟ قلت نعم قال فإنه كان بها حتى من اليهود سيق الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيمهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفئتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال إيمانهم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونساءها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكنت وقال الأيمنون ويلكم الله ، نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله وقال الأيسرون (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) قال الأيمنون (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) أي ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله والله لنا تينكم الليلة في مدينتكم والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضوا سلما وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال أي عباد الله قردة والله تعادى تعاوى لها أذنان قال ففتحوها فدخلوا عليهم فعرفت القروء أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القرده فجعلت القروء يأتها نسيها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي فيقول ألم تهكم عن كذا فتقول برأسها أي نعم ثم قرأ ابن عباس (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس) قال فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال قلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد ذكروا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم ؟) قال فأه رلى فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال قال زعم ابن رومان أن قوله تعالى (تأتيمهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتيمهم) قال كانت تأتيمهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطا ووتدا فربط حوتا منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فوجدوه فلم يزالوا به حتى قال لهم فإنه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدرى لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاءوا فسألوه فقال لهم لو شتمت صنعتكم كما أصنع فقالوا له وما صنعت ؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يعلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم ففقدوا عليهم حيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فنسوروا عليهم فإداهم قردة فجعل الفرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنومنه ويتمسح به ، وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية والله الحمد والمنة (القول الثاني) ان الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد ابن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعا فمكثوا ماشاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلا منهم أخذ حوتا فعزم أنه ثم

ضرب له وتدا في الساحل وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد أخذته فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا يتكروون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبه منهم هوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية قال فقالت طائفة للذين يهونهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم) فقالوا نسخط أعمالهم (ولعلمهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به - إلى قوله - قردة خاسئين) قال ابن عباس كانوا أثلثا ثلث نهوا وثلث قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) وثلث أصحاب الخبيثة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاته الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم ، وقوله تعالى (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وبئس فيه قرأت كثيرة ومعناه في قول مجاهد الشديد . وفي رواية ألم وقال قتادة موجه والسكل متقارب والله أعلم ، وقوله (خاسئين) أى ذليلين حقيرين مهانين

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَنَّ عَلَيْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(تأذن) تفعل من الأذان أى أعلم قاله مجاهد وقال غيره أمر ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبعته باللام في قوله (ليبيئن عليهم) أى على اليهود (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم وأمر الله وشرعه واحتياهم على المحارم ، ويقال إن موسى عليه السلام ضرب علمهم الحراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الحراج ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والحراج ثم جاء الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الحراج والجزية : قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال هى المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال على بن أبى طلحة عنه هى الجزية والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتمته إلى يوم القيامة ، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدى وقتادة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكرم الجزرى عن سعيد بن المسيب قال يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان وقوله (إن ربك لسريع العقاب) أى لمن عصاه وخالف شرعه (وإنه لغفور رحيم) أى لمن تاب إليه وأتاب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الْأَصْلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ يَمَسُّونَ الْكِتَابَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أئما أى طوائف وفرقا كما قال (وقلنا من بعدة لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض

فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيها) (منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) أى فيهم الصالح وغير ذلك كقول الجن (وأنا من الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا) (وبلوناهم) أى اختبرناهم (بالحسنة والسيئات) أى بالرءاء والشددة والرغبة والرهبه والعافية والبلاء (لعلهم يرجعون) ثم قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) الآية يقول تعالى فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك (يأخذون عرض هذا الأدنى) أى يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ويسوفون أنفسهم ويعدون بالتوبة وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال (وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه) وكما قال سعيد بن جبير يعاون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله فان عرض ذلك الذنب أخذوه وقال مجاهد في قوله تعالى (يأخذون عرض هذا الأدنى) قال لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة) ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه) وقال قتادة في الآية إى والله لخلق سوء (ورثوا الكتاب) بعد أنبيائهم ورسلمهم أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال الله تعالى في آية أخرى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) الآية قال (يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) تمنوا على الله أماني وغرة يغترون بها (وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه) لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك كما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يباليون حالاً كان أو حراماً ؛ وقال السدى قوله (فخلف من بعدهم خلف) إلى قوله (ودرسوا ما فيه) قال كانت بنو إسرائيل لا يستفتضون قاضياً إلا ارتضى في الحكم وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استفتى ارتضى فيقال له ما شأنك ترتضى في الحكم ؟ فيقول سيغفر لي ، فتظعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يظعن عليه فترتضى ، يقول وإن يأت الآخري عرض الدنيا يأخذوه قال الله تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) الآية يقول تعالى منكر عليهم في صنعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق لبيّن الحق للناس ولا يكتمون كقوله (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) وقال ابن جريج قال ابن عباس (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) قال فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، وقوله تعالى والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه أى وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه (أفلا تعقلون) يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى (والذين يمسكون بالكتاب) أى اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره (وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين)

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) يقول رفعناه وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) بميثاقهم وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعته الملائكة فوق رؤوسهم وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) وقال القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فتقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى تمتق الله الجبل فوقهم (كأنه ظلة) قال رفعته الملائكة فوق رؤوسهم رواه النسائي بطوله. وقال سنيدي بن داود في تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال هذا كتاب أقبولونه بما فيه فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم ؟ قالوا انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها قال

اقبلوها بما فيها قالوا لا حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مرارا فأوحى الله إلى الجبل فارتفع فارفع في السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى ألا ترون ما يقول ربي عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل قال فحدثني الحسن البصرى قال لما نظرنا إلى الجبل خر كل رجل ساجدا على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر يقولون هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة قال أبو بكر فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه أى حول كما قال تعالى (فسينفضون إليك رءوسهم) والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجلبهم عليه قال تعالى (فأقم وجهك للدين خنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفي رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله إني خلقت عبادى حنفاء فجاءهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع عن بنى سعد قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال فتناول القوم النرية بعد ما قتلوا المتاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « ما بال أقوام يتناولون النرية » فقال رجل يارسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما نزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن والله لقد قال الله في كتابه (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقدرناه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به ، وأخرجه النسائى في سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن بن الحسن بن الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك ، وقد وردت أحاديث في أخذ النرية من صلب آدم عليه السلام وتميزهم إلى أصحاب اليمن وأصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم : قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبي عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أ كنت مفتديا به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعنى ابن حازم عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفه فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال (ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا أن أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله - المبطلون) وقد روى هذا الحديث النسائى في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزى به ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من

حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفا ، وأخرجه الحاكم في مستدرکه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبیر به ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبیر هكذا قال وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبیر عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه إسماعيل بن علبه ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبیر عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بدجة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي حمزة الضبعي عن ابن عباس . قال أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء ، وقال أيضا حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جرير قال مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فان ابني مجلس ومستول ففعلت به الذي أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسئل انك من يسأله إياه قال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال حدثني ابن عباس إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة فهذه الطرق كلها بما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم (ألسنت بربكم فالوا بلى) قالت الملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أحمد بن أبي طيبة هذا هو أبو محمد الجرحاني قاضي قومس كان أحد الرهاد أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه وقال ابن عدى حدث بأحداث كثيرة غرائب وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا إسحاق حدثنا مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلفت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلفت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون » فقال رحل يارسول الله فقيم العمل قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن القعني والنسائي عن قنينة والترمذي في تفسيرهما عن إسحاق ابن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جهم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) فذكره وقال

الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جعثم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوي وقولها أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم قلت الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فانه غير معروف إلا في هذا الحديث ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ولهذا يرسل كثيرا من الرفوعات ويقطع كثيرا من الموصولات والله أعلم. (حديث آخر) قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فأرأى رجلا منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه قال أي رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسب آدم فنسبت ذريته وخطي آدم فخطت ذريته » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدث عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجنم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم يا رب لم فعلت هذا بذريتي قال كي تشكر نعمتي وقال آدم يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا قال هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم (حديث آخر) قال عبد الرحمن بن قتادة النضري عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حكيم رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضى القضاء ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة يسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار يسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه (حديث آخر) روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين يمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال أأست بربكم ؟ قالوا بلى قال يا أصحاب الشمال قالوا لبيك وسعديك قال أأست بربكم ؟ قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم رداهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه.

(أثر آخر) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم ؟ قالوا بلى) الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة ولم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشرکوا بي شيئا وإني سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبى قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فهم الغنى والفقر وحسن الصورة ودون ذلك فقال يا رب لو سويت بين عبادك ؟ قال إني أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله) الآية ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير

وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية ابن جعفر الرازي به وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها وبالله المستعان . فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه ويميز بين أهل الجنة وأهل النار وأما الأشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم ومن ثم قال قائلون من الساف والخلف إن المراد بهذا الأشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار الجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أي أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالوا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الأشهاد حجة عليهم في الشرك فلو كان قد وقع هذا كما فاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فان قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ولهذا قال (أن تقولوا) أي لثلاث تقولوا يوم القيامة (إنا كنا عن هذا) أي التوحيد (غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا) الآية

﴿ وَأَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَّكَهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَءَنفُسِهِمْ كَانُوا بِظَاهِنُونَ ﴾

قال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى (واطل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية قال هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم ابن باعوراء وكذا رواد شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس هو صفي بن الراهب قال قتادة وقال كعب كان رجلا من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقبياً بيت المقدس مع الجبارين وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها ، وقال مالك ابن دينار كان من علماء بنى إسرائيل وكان محب الدعوة يقدهونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله فأقطعهم وأعطاهم فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس هو بلعم بن باعوراء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال هو بلعم وقالت ثميف هو أمية بن أبي الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو في قوله (واطل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية

قال هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روى من غير وجه عنه وهو صحيح اليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبه فإنه كان قد اتصل اليه علم كثير من علم الشرائع المقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فانه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لسكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاته المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثي أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبجه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث أنه بمن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمير حدثنا سفيان عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فهن وكانت له امرأة له منها ولد فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلاك واحدة فما الذي تريد ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل فاما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فدعا الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعدت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس ، غريب ، وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان محباب الدعوة ولا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال كان قد أوتى النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتابه - يعني بلعم - أتابه بنوعه وقومه فقالوا إن موسى رجل حديد ومعك جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فدعا الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي ، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان) الآية ، وقال السدي لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) بعث يوشع بن نون نبيا فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبى وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فيأبوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام فكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم لا تذهبوا بني إسرائيل فاني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمن فكان ينكح أتابانه وهو الذي قال الله تعالى (فانسلخ منها) وقوله تعالى (فأتبعه الشيطان) أي استحوذ عليه وعلى أمره فهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال (فكان من الغاوين) أي من الهالكين الحائرين البائسين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب الجبلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان رضى الله عنه حدثه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذ وراء ظهره وسمى على جاره بالسيف ورماه بالشرك » قال قلت يابني الله أيهما أولى بالشرك المرعى أو الرامى ؟ قال « بل الرامى » هذا إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الأرجاء وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما

وقوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) يقول تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها (ولكنه أخذ إلى الأرض) أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر والنهى ، وقال أبو الراهويه في قوله تعالى (ولكنه أخذ إلى الأرض) قال تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة باناس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان ، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وكان من قصة

هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتز عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان محباب الدعوة قال وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال الشام قال فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا ادع الله على هذا الرجل وجيشه قال حتى أوامر ربي أو حتى أوامر قال فأمر في الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم فإنهم عبادي وفيهم نبهم قال فقال لقومه إني قد أمرت ربي في الدعاء عليهم وإني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا ادع عليهم فقال حتى أوامر ربي فأمر فلم يأمره بشيء فقال قد وامت فلم يأمرني بشيء فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهك كما نهك المرة الأولى قال فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحو من ذلك إن شاء الله قال فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا قال ما يجري على لساني إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لي ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ، إن الله يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فأنهم قوم مسافرون فعسى أن يزونا فيهلكوا قال فقالوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما الله أعلم به قال فقال أبوها أبلعام لا يمكنني نفسك إلا من موسى قال ووقعوا في الزنا قال فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل فأرادها على نفسها فقالت ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى فقال إن منزلتي كذا وكذا وإن من حالي كذا وكذا فأرسلت إلى أبيها تستأمره قال فقال لها مكنيه قال ويأتيهما رجل من بني هرون ومعه الرمح فيقطعنهما قال وأيده الله بقوة فانتظهما جميعا ورفعهما على رحمة فرأهما الناس - أو كما حدث - قال وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . قال أبو المعتز فحدثني سيار أن بلعاما ركب حمارة له حتى أتى المعلولى أو قال طريقا من المعلولى جعل يضربها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت علام تضربني ؟ أما ترى هذا الذي بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه قال فنزل وسجد له قال الله تعالى (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لهم يتفكرون) قال فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره (قلت) هو بلعام ويقال باعهم بن باعوراء ويقال ابن ابر ، ويقال ابن باعور ابن شهتوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال ابن حران بن آزر وكان يسكن قرية من فرى البلقاء قال ابن عساكر : وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلخ من دينه له ذكر في القرآن ثم أورد من قصته نحو ما ذكرنا هاهنا أوردته عن وهب وغيره والله أعلم ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلبها بني إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل محباب الدعوة فأخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبى الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ قالوا له ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فانتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضر بها حتى إذا أزلها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضر بها حتى إذا أزلها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها فضر بها فخطى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قوميه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومهم أتدري يا بلعم ما تصنع ؟ إنما تدعولهم وتدعو علينا قال فهذا ما أملك ، هذا شيء قد غلب الله عليه ، قال واندلع لسانه فوق على صدره فقال لهم قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمر لكم وأحتال ، حملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومرهون فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت

امراً من الكنعانيين اسمها كسبتى - ابنة صور رأس أمتة - برجل من عطاء بنى إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبه فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقر بها قال أجل هي حرام عليك قال فوالله لا أطيعك (١) في هذا فدخل بها قبله فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون في بنى إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء الطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحرته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى حنيطه وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بنى إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من النهار فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والزرع والضحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار ، ففى بلعام بن باعوراء أنزل الله (واطل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لعلمهم يتفكرون) وقوله تعالى (فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره فتشبهه بالكلب في لهيئه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهيئه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون) (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ونحو ذلك : وقيل معناه أن قلب الكافر والمناق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره وقوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) يقول تعالى لئيب محمد ﷺ (فاقصص القصص لعلهم) أى لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب في غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن . وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كلم الله موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال (لعلمهم يتفكرون) أى فيحذروا أن يكونوا مثله فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة وموازرتة كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتبته فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة وقوله (ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يقول تعالى ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لاهمة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه » وقوله (أنفسهم كانوا يظلمون) أى ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بأعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركوع إلى دار البلى ، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقول تعالى من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وذل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

(١) فى نسخة الأزهر : لا تطيعك .

له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله « الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم
 ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
 ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم) أى خلقنا وجعلنا لجهنم (كثيراً من الجن والإنس) أى هيأناهم لها وبعمل أهلها
 يعملون فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات
 والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « إن الله قدر
 مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »

وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: دعى النبي
 صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء
 ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب
 آباءهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آباءهم » وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود « ثم يبعث الله إليه
 الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد » وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه
 وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي » والأحاديث فى
 هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون
 بها ولهم آذان لا يسمعون بها) يعنى ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية كما قال تعالى
 (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله)
 الآية ، وقال تعالى (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) هذا فى حق المنافقين ، وقال فى حق الكافرين (صم بكم عمى فهم
 لا يعقلون) ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم
 لتولوا وهم معرضون) وقال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال (ومن يعش عن ذكر
 الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) وقوله تعالى (أولئك
 كالأنعام) أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعون ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لا تنفع بهذه الحواس
 منها إلا فى الذى يقبها فى ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء
 ونداء) أى ومثاهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول .
 ولهذا قال فى هؤلاء (بل هم أضل) أى من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها ، وإن لم تفقه كلامه
 بخلاف هؤلاء ؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده
 فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ، ومن كفر به من
 البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من
 أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » أخرجه فى الصحيحين من حديث سفبان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج
 عنه ؛ ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد به ، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن
 الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله « يحب الوتر : هو
 الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور

الفجار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ القيمت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المحيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولي الحميد المحصي المبدي المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواحد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المتوسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » ثم قال الترمذى هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق صفوان به ، وقد رواه ابن ماجه فى سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا فسرده الأسماء كنعنو ما تقدم بزيادة وتقصان ، والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى والله أعلم ، ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سامة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحا » فقيل يا رسول الله أفلا تتعالمها ؟ فقال « بلى ينبغى لسكلك من سمعها أن يتعالمها » وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي فى صحيحه بمثله ، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه الأحوذى فى شرح الترمذى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائهم) قال إلحاد الملحدون أن دعوا اللات فى أسماء الله ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون فى أسمائهم) قال اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقال قتادة يلحدون : يشركون فى أسمائهم . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد فى كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد فى القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن خلقنا) أى بعض الأمم (أمة) قائمة بالحق قولا وعملا (يهدون بالحق) يقولونه ويدعون إليه (وبه يعدلون) يعملون ويقضون ، وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية هى هذه الأمة المحمدية قال سعيد بن قتادة فى تفسير هذه الآية بلغنى أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) » وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال : قال رسول الله ﷺ « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » وفى الصحيحين عن معاوية بن أنى سفيان قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفى رواية « حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » وفى رواية « وهم بالشام »

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

يقول تعالى (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء كما قال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فنحننا علمهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ولهذا قال تعالى (وأملى لهم) أى وسأملى لهم أى أطول لهم ما هم فيه (إن كيدى متين) أى قوى شديد

﴿ أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

يقول تعالى (أو لم يتفكروا) هؤلاء المكذبون بآياتنا (ما بصاحبهم) يعنى محمداً ﷺ (من جنة) أى ليس به جنون بل هو رسول الله حقا دعاء إلى حق (إن هو إلا نذير مبين) أى ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به كما قال تعالى (وما صاحبكم بمجنون) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا وما لصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا قياما خالصا لله ليس فيه تعصب ولا عناد مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ثم تفكروا في هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقا وصدقا ، وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشا فجعل يفخدهم فخذأ فخذأ يابى فلان يابى فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائدهم إن صاحبكم هذا مجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل الله تعالى (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين)

﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبهه ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينبئوا إلى طاعته ويحللوا الأنداد والأوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه ، وقوله (فبأى حديث بعده يؤمنون) يقول فبأى تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذى أتاهم به من عند الله في آى كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟ وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعثمان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث كلهم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بي كذا فلما اتهمنا إلى السماء السابعة فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب » على بن زيد بن جدعان له منكرات . ثم قال تعالى

﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فانه لا يهديه أحد ولو نظر لنفسه فيما نظر فانه لا يجزى عنه شيئا (ومن يرد الله فنته فلن يملك له من الله شيئا) وكما قال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)

﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْ قِئَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى (يسألونك عن الساعة) كما قال تعالى (يسألك الناس عن الساعة) قيل نزلت في قريش وقيل في نفر من اليهود والأول أشبه لأن الآلة مكية وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتكديبا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) وقوله (أيان مرساها) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس منتها أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة (قل إنما علمها عند ربى لا يجلبها لوقتها إلا هو) أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى فإنه هو الذي يجلبها لوقتها أي يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ولهذا قال (نقلت في السموات والأرض) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله (نقلت في السموات والأرض) قال ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون قال معمر قال الحسن إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (نقلت في السموات والأرض) قال ليس شيء من الحلق إلا يصيبه من ضر يوم القيامة ، وقال ابن حريج (نقلت في السموات والأرض) قال إذا جاء انشفت السماء وانتثرت النجوم . وكورت الشمس . وسيرت الجبال وكان ما قال الله عز وجل فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة ، وهو كما قاله كقوله تعالى (لا تأتاكم إلا بغتة) ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم وقال السدى (نقلت في السموات والأرض) يقول خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولأنبي مرسل (لا تأتاكم إلا بغتة) يبلغهم قيامها تأتهم على غفلة وقال قتادة في قوله تعالى (لا تأتاكم إلا بغتة) قضى الله أنها (لا تأتاكم إلا بغتة) قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول « إن الساعة تهيج للناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفف، يرانه ويرفعه » وقال البخارى حدثنا أبو الجمان أنبأنا شيب أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أنى هجرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تطالع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا يفتح نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطوبانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه ولتقوم الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وقال مسلم في صحيحه حدثني زهير بن حرب حدثنا سفان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به قال تقوم الساعة والرجل يخلب لقحته فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم .

وقوله (يسألونك كأنك حفي عنها) اختلف المفسرون في معناه فقيل معناه كما قال العوفي عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأن بينك وبينهم مودة كأنك صدق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة سأله قوم كأنهم يرون أن محمدا حفي بهم فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطع الله علمها ملكا مقربا ولا رسولا ، وقال قتادة قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة فقال الله عز وجل (يسألونك كأنك حفي عنها) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدى وهذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجیح وغيره (يسألونك كأنك حفي عنها) قال استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأنك عالم بها لست تعلمها (قل إنما علمها عند الله) وقال معمر عن بعضهم (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (كأنك حفي عنها) كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ (إن الله عنده علم الساعة) والآية وهذا القول أرحح

في المقام من الأول والله أعلم ولهذا قال (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليغلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام . ثم عن الإيمان . ثم عن الإحسان . ثم قال فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أي لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة) الآية ، وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة ثم قال « في خمس لا يعلمهن إلا الله » وقرأ هذه الآية وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب صدقت ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وفي رواية قال « وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه » وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة ، ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهورى فقال يا محمد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هاؤم » على نحو من صوته قال يا محمد متى الساعة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها » قال ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولكفى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » فما فرح المسامون بشيء فرحهم بهذا الحديث وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال « المرء مع من أحب » وهي متواترة عند كثير من الحفاظ التقنين فيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وان لم يعرفوا تعيين وقته . ولهذا قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا حدثنا أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول « إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم » يعني بذلك موتهم الذي يفضى بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة ثم قال مسلم وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » انفرد به مسلم وحدثني حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعيد بن أبي هلال المصري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيئة ثم نظر إلى غلام بين يديه من أردشوة فقال « إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » قال أنس ذلك الغلام من أترابي وقال حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا عفان بن مسلم حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس قال مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابي فقال النبي ﷺ « إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » ورواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه عن عمرو بن عاصم عن همام بن يحيى عن قتادة عن أنس أن رجلا من أهل البادية قال يا رسول الله متى الساعة فذكر الحديث وفي آخره فمر غلام للمغيرة بن شعبة وذكره وهذا الاطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم في حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر « تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة » رواه مسلم وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله قال ابن عمر وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أنبأنا العوام عن جبلة بن سحيم عن موثر بن عفارة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة - قال - فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال عيسى أما وجبتا فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل وفيما عهد إلى ربه عروج أن السجل خارج - قال -

ومعى قضبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال فهللكم الله عز وجل إذا رآني حتى إن الشجر والحجر يقول يا مسلم إن تحتي كافرا فتعال فاقتله قال فهللكم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأمنون على شيء إلا أهل كوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عز وجل عليهم فهللكم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أي نتن قال فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر قال الإمام أحمد قال يزيد بن هارون ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم ثم رجع إلى حديث هشيم قال فبقيا عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل التيم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده نحوه فهو لأأكبر أولى العزم من الرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها لأنه ينزل في آخر هذه الأمة سفدا لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك بأجوج ومأجوج بركة دعائه فأخبر بما أعلمه الله تعالى به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن أبي بكر حدثنا عبد الله بن زياد بن لقيط قال سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال « علمها عند ربي عز وجل لا يجلبها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها إن بين يديها فتنة وهرجا » قالوا يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج قال « بلسان الحبشة القتل » قال « ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحدا » لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه وقال وكيع حدثنا ابن أبي خالد عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) الآية ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد به وهذا إسناد جيد قوى فهذا النبي الأُمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي اللحمة والعاقب والمقفي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه مع قوله فيها ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضى الله عنهما « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال (قل إن علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكترت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى ابن أبي نجیح عن مجاهد (ولو كنت أعلم الغيب لاستكترت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى ابن أبي نجیح عن مجاهد وقال مثله ابن جرير وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان دجة ، وفي رواية كان إذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم . والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكترت من الخير) أي من المال وفي رواية لعمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر ، وقال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من الخصبه ولوقت الغلاء من الرخص فاستعددت له من الرخص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لا جنتت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ثم

أخبر أنه إنما هو نذير وبشير أى نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لتبشروا به المقين وتنذر به قومالدا)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْكُمْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لِئِنْ أَتَيْتِنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) الآية وقال فى هذه الآية الكريمة (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) أى ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فلا لفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفارقة بين المرء وزوجه (فلما تغشاها) أى وطئها (حملت حملا خفيا) وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألما إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضة وقوله (فمرت به) قال مجاهد استمرت بحمله ، وروى عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدى نحوه ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه استخفته ، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله (فمرت به) قال لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هى إنما هى فاستمرت به ، وقال قتادة (فمرت به) استبان حملها ، وقال ابن جرير معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال العوفي عن ابن عباس استمرت به فشكت أحملت أم لا (فلما أتتكم) أى صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدى كبر الولد فى بطنها (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا) أى بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك أشفقا أن لا يكون إنسانا. وقال الحسن البصرى لئن آتيتنا غلاما (لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) ذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك إن شاء الله وبه الثقة ، قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاکم فى مستدرکه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم فى تفسيره عن أبي زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به به مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعا : قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فأنه أعلم (الثانى) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأطلی حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر ابن عبد الله عن سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو بن الحسن (جعلنا له شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا فى بعض أهل الملك ولم يكن بآدم ،

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن عن أبي ذريرة آدم ومن أشرك منهم بعده يعني (جعلناه شركاء فيما آتاهما) وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا ، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم. فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فيعبدونهم الله ويسمهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاهم إبليس فقال إنكما لو سميتاه بغير الذي تسميان به لعاش قال فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث فيه أنزل الله يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - جعلنا له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الآية ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم (هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - فمرت به) شكت أحملت أم لا ؟ (فلما أتت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون أمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويا ومات كجاءت الأول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاهما) الآية ، وقال عبد الله بن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (فلما آتاهما صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها) آدم (حملت) فأتاهما إبليس لعنه الله فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني وألأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياه عبد الحارث فأيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثانية فأتاهما أيضا فقال أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما فأدركما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى (جعلنا له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبي حاتم

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كجهاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجاهر حدثنا سعيد يعني ابن بشر عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال لما حملت حواء أتاهما الشيطان فقال لها أطيعيني ويسلم لك ولدك ، سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فماتت ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون) ثم قال فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدها من الوالدين وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ومعلوم أن المصابيح هي النجوم التي زين بها السماء ليست

هي التي يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص الصايح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَا عَلَيْنِكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ * إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَمْ يَشْعُرُوا أَنَّ اللَّهَ أَعْيَنَ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظَرُونَ * وَإِنْ وَايَى اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

هذا إنكار من الله على الشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله مربة مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ولا تصر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدها أكل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال (أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) أي أشركون به من العبودات ما لا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير الطعام وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها فمن هذه صفة وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل (أتعبدون ما ننحتون) الآية ثم قال تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) أي لعابديهم (ولا أنفسهم ينصرون) يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله (فراغ عليهم ضربا باليمين) وقال تعالى (فجعلهم جنادا إلا كبيرا لهم لعلمهم إليه يرجعون) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أسما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام الشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتاوا لأنفسهم فكان لعمر بن الجموح وكان سيدا في قومه صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان به العذرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ماصنعه به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر ثم يعدوان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في جبل في بئر هناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعمل أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تالله لو كنت إلها مستدن * لم تك والسكب جميعا في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيدا رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه وقوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) الآية يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها وسواء لديها من دعاها ومن دعاها كما قال إبراهيم (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم بل الأناس أكل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطن وتلك لا تفعل شيئا من ذلك وقوله (قل ادعوا شركاءكم) الآية أي استنصروا بها طي فلا تؤثرنى طرفة عين واجهدوا جهدكم (إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أي الله حسبي وكافيني وهو نصيرى وعليه متكلى وإليه ألتجأ وهو ولي فى الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدى وهذا كما

قال هود عليه السلام لما قال له قومه (إن تقول إلا اعتراضك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني برى بما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) وكتقول الخليل (أفرايتم ما كنتم تعبدون أتم وآباؤكم الأقدمون * فانهم عدو لى إلاب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين) الآيات وكتقوله لأبيه وقومه (إني براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) وقوله (والذين تدعون من دونه) إلى آخر الآية مؤكدا لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذلك بصيغة التثنية ، ولهذا قال (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم يصرون) وقوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) كقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم) الآية وقوله (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) إنما قال (ينظرون إليك) أى يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهى جماد ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك فعب عنها بضمير من يعقل ، وقال السدى المراد بهذا المشركون ، وروى عن مجاهد نحوه والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَمِعْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (خذ العفو) يعنى خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شىء فخذة وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرأئض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدى وقال الضحاك عن ابن عباس (خذ العفو) أنفق الفضل ، وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (خذ العفو) قال الفضل وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله (خذ العفو) أمره الله بالعفو والصفح عن الشركين عشر سنين ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد فى قوله تعالى (خذ العفو) قال من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال هشام بن عروة عن أبيه أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وفى رواية قال خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وفى صحيح البخارى عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس ، وفى رواية لغيره عن هشام عن أبيه عن ابن عمر ، وفى رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة أنهما قالتا مثل ذلك والله أعلم ، وفى رواية لسعيد بن منصور عن أبى معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبى الزبير خذ العفو قال من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم جميعا حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبى قال لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) قال رسول الله ﷺ « ما هذا يا جبريل ؟ » قال إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك ، وقد رواه ابن أبى حاتم أيضا عن أبى يزيد القراطيسى كتابته عن اصبع بن الفرغ عن سفيان عن أبى عن الشعبي نحوه ، وهذا مرسل على كل حال وقد روى له شواهد من وجوه أخر وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عباد عن النبى ﷺ أسندهما ابن مردويه ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا شعبة حدثنا معاذ بن رفاعة حدثنى على بن يزيد عن القاسم بن أبى أمامة الباهلى عن عقبه بن عامر رضى الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال فقال « يا عقبه صل من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك » وروى الترمذى نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد به وقال حسن قلت ولكن على بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فهما ضعف ، وقال البخارى قوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) العرف المعروف حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبيد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من نفر الذين يدنهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته

كهم ولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل انفراد باخراجه البخارى ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس فقال إن هذا منى عنه فقالوا نحن أعلم بهذا منك إنما يكره الجبل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به فسكت سالم وقال (وأعرض عن الجاهلين) وقول البخارى : العرف المعروف ، نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقتادة وابن جرير وغير واحد وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفًا وعارفا وعارفة كل ذلك بمعنى المعروف قال وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل في ذلك جميع الطاعات وبالاعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقهم باحتال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالاعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فهما جناس فقال :

خذ العفو وأمر بعرف كما * أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن في الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان فرحل محسن فيخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يجرجه وإما مسىء فمره بالمعروف فان نمدى على صلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه ففعل ذلك أن يرد كيدك كما قال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون *) وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى هذه الوصية (وإما يترغى من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم) وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً (وإما يترغى من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم) فهذه الآيات الثلاث في الاعراف والمؤمنون وحم السجدة لارابع لمن فانه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن فانه ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ولهذا قال (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان فانه لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فانه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك قال ابن جرير في تفسير قوله (وإما يترغى من الشيطان نزع) وإما يغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الاعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته (فاستعد بالله) يقول فاستعج بالله من نزع (إنه سميع عليم) سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزع ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء عليم بما يذهب عنك نزع الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال: يارب كيف بالغضب ؟ ، فأنزل الله (وإما يترغى من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم) قلت وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتزعزع غضبا ، فقال رسول الله ﷺ « إني لأعلم كلمة لو قالها لنهب عنه ما يجسد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقيل له فقال ما بى من جنون . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره قال الله تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) والعياد الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما اللاذقى طلب الخير كما قال الحسن بن هانئ في شعره

يامن ألوذ به فما أؤمله * ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظماً أنت كاسره * ولايهيضون عظماً أنت جابره
وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي
الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما نهى الله عن فعله (إذا مسهم) أي أصابهم طيف وقرأ
الآخرون طائف وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد وقيل بينهما فرق ومنهم من فسر ذلك
بالغضب ومنهم من فسر بمس الشيطان بالصرع ونحوه ومنهم من فسره بالهم بالذنب ومنهم من فسره باصابة الذنب وقوله
(تذكروا) أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدته ووعيده فتأبوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب (فإذا هم
مبصرون) أي قد استقاموا وصحوا بما كانوا فيه وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو
عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال جاءت امرأة الى النبي ﷺ وبها طيف فقالت يا رسول الله ادع الله
أن يشفيني فقال « إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك » فقالت بل أصبر ولا حساب
عليّ ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت يا رسول الله إني أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفيني فقال
« إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت صبرت ولك الجنة » فقالت بل أصبر ولى الجنة ولكن ادع الله أن
لاأتكشف فدعا لها فكانت لا تتكشف وأخرجه الحاكم من مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه
وقد ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهو يته امرأه فدعته
إلى نفسها فإزالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان
تذكروا فإذا هم مبصرون) فخر مغشياً عليه ثم أفاق فأعادها مات فجاء عمر فعزى فيه أباه وكان قد دفن ليلاً فذهب
فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمر فقال يافتي (ولن خاف مقام ربه جنتان) فأجابه الفتى من داخل القبر يا عمر قد
أعطانيهما ربي عز وجل في الجنة مرتين . وقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم) أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله (إن
المبشرين كانوا إخوان الشياطين) وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم يمدونهم في الغي أي تساعدهم الشياطين
على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم وقال ابن كثير المد الزيادة يعني يمدونهم في الغي يعني الجهل والسفه (ثم لا يقصرون)
قيل معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وإخوانهم
يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) الآية قال لا الإنس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم وقيل معناه كما
رواه العوفي عن ابن عباس في قوله (يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) قالهم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم
لا يقصرون يقول لا يسأمون وكذا قال السدي وغيره أن يعنى الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم
في الشر لأن ذلك طبيعة لهم وسجية (لا يقصرون) لا تفتقر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين
على الكافرين تؤزهم أزاً) قال ابن عباس وغيره تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبَعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ الَّيْمُونِ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (قالوا لولا اجتبتها) يقول لولا تلقيتها وقال مرة أخرى لولا
أحدثها فأشأنها وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد في قوله (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجبتنا) قال لولا

اقتضيتها قالوا نخرجها عن نفسك وكذا قال قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال العوفي عن ابن عباس (لولا اجتيبها) يقول تلقبها من الله تعالى وقال الضحاك (لولا اجتيبها) يقول لولا أخذتها أنت فبحث بها من السماء ومعنى قوله تعالى (وإذا لم تأتهم بآية) أي معجزة وخارق كقوله تعالى (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له (قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي) أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء وإنما أتبع ما أمرني به فأمثل ما يوحى به إلي فان بعثت آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليهم ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات فقال (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظامه واحترامه لا كما كان يعتد به كفار قريش المشركون في قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا » وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة أيضا وصححه مسلم بن الحجاج أيضا ولم يخرج في كتابه وقال إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة قال كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) والآية الأخرى أمروا بالانصات، قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا المحاربي عن داود بن أبي هند عن بشير بن جابر قال صلى ابن مسعود فسمع ناسا يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال أما أن لكم أن تفهموا أما أن لكم أن تعقلوا (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) كما أمركم الله قال وحدثني أبو السائب حدثنا حفص عن أشعث عن الزهري قال نزلت هذه الآية في فتي من الأنصار (١) كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئا قرأه فنزلت (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الزهري عن أبي أكتمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال « هل قرأ أحد منكم معي آتفا؟ » قال رجل نعم يا رسول الله ، قال « إني أقول مالي أنازع القرآن » قال فاتته الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ وقال الترمذي هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازي ، وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهري : قال لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ولكنهم يقرءون فيما لا يجهر به سرا في أنفسهم ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرا ولا علانية فإن الله تعالى قال (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) قلت هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها وهو أحد قولي الشافعية وهو القديم كذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة وقال في الجديد يقرأ الفاتحة فقط في سكنت الإمام وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل لا يجب على المأموم قراءة أصلا في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث « من كان له إمام فقرأته فقرأه » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعا وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفا وهذا أصح وهذه المسألة مبسوسة في غير هذا الموضع وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفا على حدة واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضا والله أعلم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية (١) فيه أن الآية مكية نزلت قبل إسلام الأنصار .

قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) يعنى فى الصلاة المفروضة ، وكذا روى عن عبد الله بن المغفل ، وقال ابن جرير حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشر بن المفضل حدثنا الجريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كزيب قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان والقاص يقص ، فقلت ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال فنظرا إلى ثم أقبل على حديثهما ، قال فأعدت فنظرا إلى وأقبل على حديثهما ، قال فأعدت الثالثة قال فنظرا إلى فقالا : إنما ذلك فى الصلاة (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وكذا قال سفيان الثورى عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد فى قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال فى الصلاة وكذا رواه غير واحد عن مجاهد ، وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم ، وكذا قال سعيد ابن جبير والضحاك وإبراهيم النخعى وقنادة والشعبى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بذلك فى الصلاة وقال شعبة عن منصور سمعت إبراهيم بن أبى حمزة يحدث أنه سمع مجاهدا يقول فى هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وكذا روى ابن جرير عن عطاء مثله ، وقال هشيم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال فى الصلاة وعند الذكر ، وقال ابن المبارك عن بقية سمعت ثابت بن عجلان يقول سمعت سعيد بن جبير يقول فى قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة ، وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئا قال السكوت ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن إذا جلست إلى القرآن فأنصت له وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى

﴿ وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء وهذه الآية مكية ، وقال هبنا بالغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع عيمان ، وأما قوله (تضرعا وخيفة) أى اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهر ولهذا قال (ودون الجهر من القول) وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقرئ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وتتبع بين ذلك سبيلا) فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعون وليتخذ سبيلا بين الجهر والاسرار ، وكذا قال فى هذه الآية الكريمة (ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد مناف للأنصت المأمور به ، ثم إن المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم أو فى الصلاة والخطبة ومعلوم

أن الأنصت إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان سواء كان سرا أو جهرا فهذا الذي قاله لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالقدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقترى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون في الصف » وهذه أول سجدة في القرآن بما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع ، وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدات القرآن آخر تفسير سورة الأعراف والله الحمد والمنة

(تفسير سورة الأنفال)

وهي مدنية . آياتها سبعون وست آيات . كلماتها ألف كلمة وستائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا والله أعلم .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

قال البخارى : قال ابن عباس : الأنفال المغنم ، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الأنفال قال نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه على بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال الأنفال المغنم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغنم ، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : الأنفال المغنم ، قال فيها لبيد :

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرَ نَفْلِ * وَيَأْذَنُ اللَّهُ رَيْثِي وَالْعَجَلِ

وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال ابن عباس رضى الله عنهما : الفرس من النفل والسلب من النفل . ثم عاد لسأله فقال ابن عباس ذلك أيضا ثم قال الرجل : الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي ؟ قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يخرجه فقال ابن عباس أتدرون ما مثل هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذ سئل عن شيء قال لا أمرك ولا أنهلك ثم قال ابن عباس والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا أمرا محملا محرما . قال القاسم فسلط على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ثم عاد عليه حتى أغضبه فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقيه أو على رجله ، فقال الرجل أما أنت فقد انقم الله لعمر منك . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينقله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المنبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل والله أعلم .

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت (يسألونك عن الأنفال) وقال ابن مسعود ومسروق لا نفل يوم الزحف إنما النفل قبل التقاء الصفوف رراه ابن أبي حاتم عنهما ، وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح في الآية (يسألونك عن الأنفال) قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي صلى الله